دراسات عربية

مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية

في هذا العدد :

العدد : ٩
السنة السادسة عشرة • تموز • يوليو • ١٩٨٠

دراسات عربية

مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية

تصدر شهرياً عن دار الطليعة - بيروت - ص.ب ١١١٨١٣

ARAB STUDIES

A MONTHLY CULTURAL, ECONOMIC & SOCIAL REVIEW

P. O. B. 111813 - Beirut-Lebanon

Yearly Subscription U.S.30 Dollars

Europe: 15 Sterling

المدير المسؤول : جوزيف صفير - مدير الادارة : عبد الحميد ناصر

الادارة : شارع المصيطبة - محلة يزبك - بناية البستان - تلفون ٣٠٩٤٧٠ - ٣١٤٦٥٩
بيروت - لبنان - تلكس : LE. KAMALS 20043

الاشتراكات : (بما فيها أجور البريد الجوي) للدوائر والمؤسسات الرسمية : ١٥٠ ل.ل.
لبنان : ٥٠ ل.ل. - سورية : ٦٠ ل.س. - العراق : ٨ دنانير - اميركا : ٣٠ دولاراً
فرنسا : ١١٥ فرنك - المانيا الغربية : ٥٠ ماركاً - المملكة المتحدة وسائر أقطار أوروبا : ١٥ جنيهاً استرلينياً

تدفع قيمة الاشتراك مقدماً حوالة مصرفية أو بريدية

في هذا العدد

السنة السادسة عشرة ، العدد ٩ ، تموز (يوليو) ١٩٨٠
16 th Year , No 9 , July 1980

هـذا العـدد

● ما معنى ان يكون الانسان « رفيقـا » ؟ وهل التجربة الحزبيـة هـي محض تجربة سياسيـة ؟ وما دور الذاتيـة الانسانية في الانتماء السياسي ؟ وما جملة المؤسسات والعلاقات والطقوس التي تتوسط العلاقة الحميمية بيـن المناضل وبين تنظيمه السياسي ؟

هذه الاسئلة ـ وغيرها ـ هي بعض مـا يطرحه ، ويحاول ان يجد جوابـا له ، وضاح شرارة في هذا النـوع الادبي الجديد الذي يبتدعه في اللغة العربية، ربما لاول مرة . والجدير بالذكـر ان وضاح شرارة كتب « الرفاق ، سيـرة سياسية جزئية » على ضوء تجربة سياسيـة وتنظيمية محددة هي تجربة العمل التأسيسي في اطار « لبنان الاشتراكي » ، ذلك التنظيم العروبـي واليساري الذي لم يعـد قائمـا اليوم ، والذي توزع مناضلوه بين حركات سياسية شتى، او اعتزلوا التجربة التنظيمية بصورة نهائية .

● د. عبدالقادر ياسين يقدم في دراسة موضوعية ، موثقة ، تعريفـا جامعا لـ « الحقوق الوطنية غير القابلة للتصرف للشعب الفلسطيني » .

دراسته تتصف بالهدوء الموضوعي رغم الحرارة الايديولوجيـة التـي درجت العادة على احاطـة هذه المواضيع بها .

● وفي اطار القضية الفلسطينية ايضا ، يكتب احمـد المصري عـن آخـر المشاريع التي تفتقت عنهـا عبقريـة الزعامة المصريـة لجر مياه النيـل الـى اسرائيل . مقال يحكي عن التاريخ .. والمأساة .

● ومن منظور تراثي يقدم د. حسن سوشتس ، الاستاذ في جامعة سراييفو بيوغوسلافيـا لمحات عن مساهمـة الحضارة العربية ، وبخاصة ابن خلدون ، في تأسيس علم الاجتمـاع .

● اما رضا الطويل فيقدم عرضـا نقديـا حارا ، اشنبه مـا يكون بعزف على اوتار الغضب ، عـن شاعـر التمرد في مصر الحالية : أمل دنقل .

● ودور الترجمـة في هـذا العـدد من « دراسات عربية » غير هين . فالملف الذي نقدمه عـن « طبيعـة الاتحاد السوفياتي » يحتوي فقرات مطولة من اوسـع مناقشة ايديولوجيـة دارت في السنوات الاخيرة بين عدد من ابرز مفكري اليسـار في اوروبا ، وبالتحديد شارل بتلهايم وروسانا روساندا ولويس آلتوسير وارنست مانديـل .

د • ع

الرفاق

(سيرة سياسية جزئية)

وضاح شرارة

مضى زمن كنت «رفيقا». كان ذلك هو اسمي الذي غلب على اسمي الفعلي، اي الاسم الذي اطلقه علي عندما وضعتني امي والدي. كان اسمي الرفيق فلانا. ولـما كان فلان يتغير تبعا للاسماء الذي كنت انتقيها بين وقت واخر، لم يثبت الا الرفيق. فكان الاسم الاساس ، الثابت الذي لا يتحول، هو الرفيق . كنـت ولا شك اشترك في اسمي هذا مع عشرات او مع مئات من الرفاق الذين يحملون نفس الاسم. الا ان اشتراكي هذا لم يكن يغض من شخصية التسمية ومـن التصاقها بي. لم تكن العمومية الظاهرة تنقص من شأن الذاتية او تلقي عليهـا ظلا من الريب بل كانت ترفعها الى قمة توهجها وتضفي عليها القا ولالاء غيـر منقوصين. كانت التسمية برفيق تنفذ الى اعماق الذات وتلمس الخاص في اكثر جوانبه بعدا في الآن الذي تطل فيه على الآخرين الذين يشتركون فيها . اي انها كانت تحقق معجزة الجمع بين الخاص والعام، بين الداخل والخارج، دون صعوبة بادية او دون افتعال ظاهر. لا شك ان اطلاق «لقب» الرفيق كان يفتـرض طقسا اجتماعيا، وعلاقة اجتماعية ومؤسسية، وتعارفا متبادلا. لكن التسمية كانـت تنجح في اختراق الطقس والعلاقة والمؤسسة والتعارف الى قلب الذات الحميم. فكان الواحد منا رفيقا في اخص ما هو وفي اعم واوثق ما يشترك به مع رفاقه.

ثم لم اعد رفيقا. استعدت اسمي الذي اورثتني اياه التسمية الابويـة والعائلية، اسمي المسبوق احيانا بالادوار التي تلصقها بي الحياة الاجتماعية كما تلصقها بغيري. فاذا بي الاخ طورا والاستاذ طورا اخر، عدا الخال والعم والاب وابن الاخ وابن الاخت الخ . عدت الى عرائي الشخصي والفردي والذاتي ، الـى تاريخ سمته الاولى ما اعمله وما اقوله وما ادعيه، انا، باسمي الخاص. لم يعد يطل بي اسمي على اخرين اشاركهم ويشاركونني، ازعم انني اشاركهم ويزعمون انهـم يشاركونني، حيزا كنت اتعرف ويتعرفون فيه على نواتي المركزية او على هويتي الشخصية والعامة معا .

هذا الهوى العام والذي يدمج العام بالخاص دون افتئات احدهما عـلـى الاخر هو ما اصطلحنا على تسميته بالعمل السياسي المنظم، العمل الذي يشكـل التنظيم السياسي محوره .

لا ريب ان مثل هذا التعريف للعمل السياسي يثير اعتراضا يبدو بديهيا للوهلة الاولى. فهو (التعريف) يسقط عناصر تصدرت الالتزام والاختيار وكانت الدافع الاول فيهما. ماذا حل بمضمون البرنامج السياسي؟ بالافكار؟ اين الظروف الموضوعية؟ اين الانتماء الطبقي؟ اين موازين القوى؟ لا بد ان يشير الاعتراض الى انحراف كامل يقلب الذاتي على الموضوعي ويلغي هذ الاخير، المقرر والمحدد، الغاء خالصا .

ترمي الرواية اللاحقة، وقد لا تنجح في ذلك، الى استخلاص الموضوعي في الذاتي اي الى التقاط تداخلهما دون انفصام. فأنا اشك في انفصالهما، اي انني اشك في امتلاك العام (السياسي) سبلا للفعل والتأثير مستقلة عن استقبال الخاص للعام وعن تأويل الاول للثاني وتحويره بل وعن استنباطه وتحديده. وان كنت لا اشك في ان اشكال التحوير والاستنباط والتحوير هذه ذات دلالة عامة، مشتركة، اجتماعية. الا انها دلالة تطل على الفروقات العميقة في الاجتماعي. فهذا الاخير ليس كتلة او كتلا متجانسة تضيع فيها الرغبات والمشاريع والتواريخ الفردية رغم ان ما يبدو فاعلا هو محصلة التجانس البادية. فالفعل هو المحصلة، الا ان تركيب المحصلة بالغ الدلالة. واعني بتركيب المحصلة ما تحذفه هذه الاخيرة وما تستبقيه. فالمحصلة الاجتماعية «تشتغل» على الرغبات والمشاريع والتواريخ الفردية وتعمل فيها تحويرا، اي حذفا واستبقاء. هذا بينما تدعي السياسة انها تتربع في مجال مستقل، متميز، لا يدين بظواهره الى سواه. اي ان علة السياسة في السياسة نفسها. فهي المجال الذي يشرف على المجتمع ويطل عليه من عل. لذا فهي علة المجتمع، وعلة الفردي فيه. فيبدو الفردي، الشخصي، في منظور السياسة، ذرة او مجموع ذرات تعجز عن التجمع والالتقاء وتكوين منظومات فاعلة. ويتحول هذا «العجز» او هذا «القصور» الى تعريف الفردي اي الى سمته الخاصة والى طابعه المميز. فيغدو الفردي وصمة لا سيما اذا ما قورن بالسياسة (العامة). وتصم هذه الوصمة كل ما لا يشرف، ما لا يترفع عن حدود الخاص ليرقى الى الاعلى، الى الاشمل، الى الاعم. يشي هذا الترتيب (هذه المرتبية) بالنزعة التي تتملك السياسة الى التسلط على المستويات الاخرى في التجربة الاجتماعية. فهي المرتبة الاعلى (او هذا ما تدعيه) لذا فهي المرتبة التي تتضمن المراتب الاخرى، وما هذه الاخيرة الا علامات استدلال على طريق لا تجد وجهتها ولا تتضح معالمها الا بوساطة السياسة وعبرها وبها. ان السياسة توظف في خدمتها منطق الجدل برمته وتوظف منه بخاصة ما يفترضه من مراتب في الوجود، ومن صلة بين هذه المراتب. لذا فان الرواية السياسية، اذا صحت التسمية، تسهم في نقد السياسة الكلية اذ تظهر جزئية السياسة وفعل الخاص في انعقاد الدلالات السياسية .

البدء العادي

في نهاية النصف الاول من الستينات التقى عدد قليل جدا ، لا يتجاوز

اصابع اليدين، على النهوض بتنظيم سياسي جديد. لم يكن مثل هذا المشروع اخرق يومها. ولم يخالج الذين التقوا عليه شعور بالمغامرة او بالاستحالة . ولم يكونوا وحدهم في مثل الحال التي حملتهم على ركوب المركب الذي ركبوه. فما داعب مخيلتنا داعب مخيلة غيرنا. فكانت مشاريع التنظيمات الجديدة تولد وتموت في لقاء العديد من الشباب الذين لم يجاوزوا العشرين من سني عمرهم. كنا نعرف مثلا ان مدرس الفلسفة الفلاني يلتقي بعض تلامذته ايام الاحاد والعطل في بيته، ويتحدث امامهم في «ضرورة» نشوء حركة سياسية جديدة، مختلفة عن الحركات المعروفة، يجمع افرادها الى عمق ايمانهم بالعروبة استيعابا لا يقل عمقا الفكر الذي يهدي الايمان الى انجع الحلول. كما كنا نعرف ان رئيس اتحاد طلاب الجامعة الفلانية، وهو ابن نقابي حرفي معروف، يأمل ان يرسي رئاسته الظرفية على اسس ثابتة لا تنتهي بانتهاء مدة ولايته في الاتحاد. وكان الحزب هو الشكل الذي يوفر الديمومة والخلود للرئاسة، بانتظار الجمع بين الرئاسة العتيدة والنيابة البرلمانية التي تسبغ على الرئاسات كلها الشرعية العتيدة والشرف التليد. كذلك لم يغب عن سمعنا ان احد افراد بطانة رئيس الجمهورية فؤاد شهاب، وهو من المثقفين والكتبة، يسعى الى ان يجمع حوله وحول مشاريع معلمه الاصلاحية عددا من المثقفين والكتبة والموظفين امثاله. وكان يخطب مستنفرا في قلوب مستمعيه ، الذين يغالبون النعاس ويحلمون بالوظيفة اللامعة، مشاعر الانفة والكرامة ضد الاستزلام الذي تفرضه اشباه الزعامات على المثقفين. الى هذه السوابق كلها، كانت الاوضاع السياسية العربية والدولية تحبل بتيارات تنتظر من يمثلها في لبنان وجواره. كان التيار القومي قد شرع يتطاير شظايا واتجاهات في المشرق، فتبحث كل شظية منه عن مقابل لبناني لها وغالبا ما تجده . وكان التيار الناصري قد دخل بدوره طور الانقسام فاذا هو حركات مختلفة بل ومتصارعة: كانت هناك ناصرية حركة القوميين العرب التي لم تلبث ان توزعت اجنحة تبعا لانخراطاتها المحلية في اليمن، وفي فلسطين، وفي سوريا، وفي العراق ... وفي كل قطر من هذه الاقطار انقسمت الناصرية الى ناصرية ضباط ينتظرون اللحظة الملائمة للوثوب الى السلطة، والى ناصرية مثقفين يحلمون بقيادة حركة شعبية ترتكز الى الفلاحين والعمال وسكان المدن، هذا عدا ناصرية البلدان التي كانت ترزح تحت احتلال مباشر وصاغت جماع مشروعها التحرري في بنود استقتها من سياسة عبد الناصر. ولم تعف الانقسامات عن الشيوعية التي بدت طويلا حصنا لا شقوق فيه ولا تطوله النزاعات. دق الخلاف الصيني ــ السوفياتي نعي الوحدة التي لا تفل، وبدت الكتلة الشيوعية حلبة صراع عنيف يلجأ فيه الفرقاء الى كل انواع الاسلحة. وتسرب الشقاق الى اطراف الحركة التي كانت طويلا كتلة واحدة فتحفزت كتل صغيرة في الاحزاب العربية كي تنتضي حجج الطرف الصيني ضد الطرف السوفياتي المسيطر. وكان ذلك يستتبع طبعا الشروع في لم شتات المؤيدين في تنظيم مستقل يتجدد بولادته فجر الشيوعية المضيء وتطل الشمس هذه المرة من الشرق الحقيقي، الشرق

الشرقي. وكان «الايطاليون» ينتظرون دورهم. ولما كان التروتسكيون قد اخذوا ينشطون مجددا في فرنسا كان توقع امتداد هذا النشاط الى ربوعنا امرا محتملا، بفارق بعض السنوات .

لم نكن صوتا منفردا، كان ضجيج الاوركسترا (الخافت، الا في آذاننا نحن الذين كنا نسارع الى حسبان كل زعقة موسيقى صادحة) يصم آذاننا. الا اننا لم نخف ولم يداخلنا الوجل. كنا نطلق النظر في ما يبدو لنا ارضا بكرا وسهلا ممتدا ونسترجعه وكلنا ثقة بالفوز. فهذه الارض لا تنتظر الا اقدامنا وسواعدنا وعرقنا وذهننا. وكنا نملك من الاقدام والسواعد والعرق وكد الذهن ما يحيي صحارى بكاملها. ذلك ان هذه الارض كانت تبدو، كما قلت، بكرا. ولم يكن يخالجنا شك في بكارتها. لم نكن نرى ما تختزنه من تاريخ لا تحصى طبقاته ولا تعد. اما المؤسسات التي ترزح على وجه هذه الارض، اما البنى السياسية والاجتماعية والتاريخية التي ترسم تضاريس هذا الوجه وملامحه الناتئة، فلم تكن تزن ثقيلا في كفة مشروعنا. كان «الشعب» سلاحنا الماضي. وكان سلاحا قاطعا، طبعا، الا انه كان في المرتبة الاولى سلاحا بسيطا نشهره في وجه المؤسسات والبنى السياسية والاجتماعية والتاريخية التي لم نكن نراها او نعبأ بها. فالشعب، في تصورنا، طاقة خام هائلة تستيقظ عند سماع الكلمة المناسبة، والتي لم يسبق لاحد قبلنا ان قالها، وتمحو بين طرفة عين واختها كل ما تراكم من الاثقال. هذه الطاقة لا عمر لها ولا تاريخ. انها بنت اللحظة التي تشهد ولادة الكلمة . وهي قادرة على بناء تاريخ جديد بالسرعة نفسها التي تقضي فيها على التاريخ القديم. وتستمد الكلمة فاعليتها من الحقيقة التي تقولها والتي تضمنها ماركسية صافية لا يشوبها كدر ولا تشوبها مصلحة ضيقة. هذا المجتمع الظالم، المفكك، المتراتب، الملحق، الفقير، والمرمي نهبا للجشع والمال والاستهلاك والتفاوت، لن يصمد لحظة امام يقظة الحقيقة في نفوس الناس، في نفوس العمال والفلاحين (مستودع الحقيقة السادرة مؤقتا في نومها). ونحن فتيل الحقيقة، نحن صاعقها. فكيف لا ينفجر هذا المجتمع ليولد جديدا ونحن نكاد نحترق غيظا ونفاذ صبر وصفاء سريرة ؟

جنون البدء

كان العالم كما نراه مرآة نفوسنا، اي مرآة تخيلاتنا عن نفوسنا . كنا نرى العالم وكأنه لا تاريخ له لاننا كنا من دون تاريخ، او كنا نحسب اننا لا تاريخ لنا. من نحن؟ لم نكن نطرح هذا السؤال على انفسنا. وكان يبدو لنا طرحه مكيدة تكيدها لنا قوى الشر. اذ كيف الجواب على مثل هذا السؤال دون الولوغ في وحل الامور الصغيرة، التافهة. كنا طلابا ومدرسين وموظفين وعاطلين عن العمل. فهل يجوز ان يحصر مشروعنا، الذي يتمطى حتى يحيط بعالم كامل ، في اطار تعريف اجتماعي يبوبنا دون رحمة «مثقفين» او «برجوازيين صغارا»؟ نحن، دعاة التحليل الاجتماعي الذي لا يرحم والذي يلقي بالاحزاب الشيوعية العربية

ارضا بلكمة سوسيولوجية اذ يكشف النقاب عن غلبة البرجوازية الصغيرة في صفوفها وعن انكماش قاعدتها الفلاحية والعمالية، لم نكن نطيق النظر الى انفسنا من هذه الزاوية . الا ان ذلك لا يعني اننا كنا نستبعد هذه الزاوية ونلقي بالشك عليها. لم يكن بوسعنا ان نقوم بذلك دون ان يطول الشك موقفنا كله. فكنا نحول بين الزاوية السوسيولوجية وبين جدارتنا بالاضطلاع بمهمتنا، باضافة عنصر الزمن. نحن جدد، نحن بدء. لذا فان المعايير التي تصح في حال الذين تقادم عليهم الزمن لا تصح في حالنا نحن. لا يستقيم بدء الا اذا رعاه المثقفون . انظروا ماركس، انجلز، لينين، تروتسكي، غرامشي، ماو . . . كان يملأ الاسى نفوسنا، والاعتزاز، ونحن نمثل على ما نقول بهذه الاسماء وغيرها. كنا نأسى لانالجماهير الشعبية ، البائسة تعريفا، عاجزة عن ان تهب الحياة لمثل هؤلاء وان ترعى في كنفها نبراس الحقيقة والتاريخ. لكن ذلك لم يكن ليقلقنا او يكدرنا، الا قليلا او للحظة، ثم نعوض هذا الانفصال بين الجماهير وهؤلاء باعجاب لا يحد بمقدرة هؤلاء الهداة على تنسم الحقيقة المولودة في ثنايا حياة الجماهير. عند هذا الموضع من التحليل لم نعد نضيق بتعريفنا ولا كان هو يضيق علينا. فشرعنا نستبق الاعتراض والسؤال، ونضيف هذا الاستباق الى مفاخرنا، فنعلن جهارا نهارا برجوازيتنا الصغيرة ونسارع الى تطويق وقعها ومفعولها فنضعها في خانة البدء المزدوج : بدئنا نحن وبدء مجتمعنا .

ذلك اننا لم نكن نشك في ان مجتمعنا (بل مجتمعاتنا العربية) بدأ معنا مرحلة جديدة من تاريخه . قد يبدو هذا الكلام سذاجة ما بعدها سذاجة ، سذاجة تشي بتفاهتنا وادعائنا وتنطحنا . وما كنت الا لاوافق على مثل هذا الحكم لو لم اتنبه الى ان يقيننا هذا لم يكن سمة نفسية خاصة من سماتنا . في الاتصالات التي لا تحصى والتي جرت مع تجمعات سياسية مماثلة لتجمعنا لاحظت انها تجمع كلها على اعتبار نفسها معلما على الطريق الذي يقود مجتمعاتنا الى فردوس التاريخ . حتى كأن الامر لا صلة له بالنفوس والنفسيات . او كأنه ثابت بنيوي من الثوابت البنيوية التي تتألف منها المخيلة السياسية التنظيمية . قد تبدو لنا تبجحات انطون سعادة وغيره من الرواد القوميين على اختلاف مذاهبهم ضربا من جنون العظمة . الا ان تجربتي المتواضعة تدل دلالة قاطعة على ان هذا الجنون ملازم لا محالة لكل مشروع سياسي ثوري او نهضوي (بمزدوجات لثوري ونهضوي او بدونها) . ولا يقدح في ذلك ان سعادة وغيره من الرواد القوميين مثلوا تيارات ذات شأن في تاريخ المجتمعات العربية . ان تواضع المنشىء السياسي لا يخفض من شأنه في نظر نفسه حال اعلانه عن نفسه منشئا او بادئا سياسيا. كان الامر مصدر دهشة لا تفارقني. كنت اذهب مع رفيق او اثنين الى احد اللقاءات الكثيرة التي كانت تتم مع فرقاء تربطنا بهم الجدة في العمل السياسي وضآلة الحجم وضيق دائرة التأثير . وكانت ترتدي هذه اللقاءات اهمية خاصة . فهي الجسر الذي كنا نعبر منه الى بعض العلنية وبالتالي الى قسط من التأثير . وكان كل طرف يأمل في كسب

الطرف الآخر الى صفه ، الامر الذي ان تم مثل وفرا في الجهد كبيرا لان الفوز بعشرة اعضاء جدد يضرب عدد اعضاء التنظيم بضعفين ويساوي مئات الساعات من الاتصال والكلام والاختبار والتلقين . فكنا نحرص على ان تتم هذه اللقاءات في اجواء مناسبة تتيح لنا ابراز تفوقنا المفترض . فنشحذ « تحليلنا » ونمده للمناسبة بالسند الذي لا يرد ، وهو مستقى في الغالب من ادبيات ماركس ولينين . وكنا نجري التجارب في مخيلتنا للقاء المنتظر فنمد محاورنا المفترض بالحجج ونرد عليها على وجه ينبغي ان لا يرقى معه شك الى قوة ردنا والى تمثيلنا للحركة السياسية التي على الاطراف الاخرى ان تنضوي في صفوفها . كنا نخرج دوما منتصرين من اللقاء المتخيل فيزداد ارتقابنا لليوم الموعود .

كنا نلتقي في اغلب الاحيان في غرف ضيقة ، مظلمة ، فقيرة الاثاث ، تقع في احياء شعبية لم نكن نسكن فيها . واحيانا كنا نلتقي في احد مقاهي الشاطىء فنجلس الى موائد ملتصقة بنوافذ مشرعة على البحر . الا اننا كنا نفضل النوع الاول من الاماكن . كنا نرى فيها اصداء واضحة

لاطياف التاريخ الوحيد الذي كانت اخيلته تلح في ذاكرتنا، اي التاريخ الروسي الذي لم نكن نعرف منه الا النتف الفقيرة التي توارثتها الاسطورة اللينينية . كنا نجلس في غرف عارية تقريبا تملأها وجوه جديدة تنم عن جدية لا تعبأ بالسن . وغالبا ما كانت تتم اللقاءات في الامسيات ، مع غروب الشمس . فتمتلىء الغرفة ، الى الوجوه والنظرات المتوثبة ، بالاصوات التي تتعالى من الشارع المكتظ وبالضجيج الذي يخلفه الاياب الى البيوت . كان هذا الجو مدعاة اطمئنان غامر . كنا نسبح في مياه الجماهير الشعبية، ونتغلغل في ضجيجها وغبارها ، ونتنشق حتى الترنح روائح العرق والخضار والمشاوي. لم يكن من المعقول ان لا نكون في خط التاريخ السوي ونحن في غمرة هذه الحياة التي تضج في اجسادنا ورؤوسنا وعيوننا .

المعرفة والشعب

لم يكن يجري النقاش على خطة واحدة ولا كان يتخذ منحى واحدا . كان محاورونا يقبلون احيانا باللغة التي نتكلم بها ، ويدرجون القضايا التي نقترحها في جدول النقاش . فنتفق على ان نناقش في اللقاء الاول سمات الوضع الراهن ، ثم ننتقل في اللقاء الثاني الى نقاش التركيب الطبقي ، على ان يخصص اللقاء الثالث الى نقد الحركات السياسية ، الخ .. الا ان هذا القبول الذي كان يبدو لنا اقرارا ضمنيا بأفكارنا كان لا يلبث ان ينقلب علينا حال البدء في النقاش . لم تكن الافكار العامة (النظرية) تعوز محاورينا ايا كانوا . ولم يكن اعتدادنا بأنفسنا وبمعرفتنا صفة ننفرد بها عن غيرنا . بل كان الاعتداد سمة عامة تتضخم حتى الصلف لا سيما ان كان المحاورون المذكورون عصاميين ومن الذين استقوا ثقافتهم من منهل القراءة الخاصة والنقاش الذي يستمر ليالي كاملة ويقفز بين القرون ومن علم الحياة الى التاريخ والفلسفة والاقتصاد دون وجل او حذر . سرعان ما كان يتحول النقاش مع مثل هؤلاء المحاورين الى محاولة ملء بئر لا قاع لها . فكنا نلهث وراء القفزات التي تقيم في جملة واحدة مقارنة بين ازمة الحكم اللبناني وانهيار الامبراطورية الرومانية وتلاشي جنس من الاجناس البيولوجية بسبب تغير في تركيب طبقات الارض و « قانون » من قوانين تطور الرأسمالية . فكان يستحيل تحديد موضوع النقاش او التقدم خطوات معدودة في تناوله . وكانت عدوى القفز تنتقل الينا دون ان ندري وتداعب فينا نزعات موسوعية مجهضة تكبتها او تتجنب عادة الاستجابة لها . فنرمي بأنفسنا في خضم المقارنات الضخمة ونتسلق القرون ونغير على المجتمعات والاجناس والمواد العلمية ونستنبط بدورنا القوانين التي ننساها بعد دقائق . لم نكن ندرك قانون اللعبة الذي لم يلبث ان اتضح تدريجا . كان لسان حال محاورينا العصاميين ضمنا هو التالي : « تأتون مدججين بادعائكم المعرفة وبدراستكم في الخارج وبقراءاتكم الماركسية وغير الماركسية ، ان سلاحكم هذا لا يخيفنا ، فنحن نعرف ونقرأ

ونجول ونصول ، ونحن مثلكم تباشير عالم جديد ومنعطف في مسيرة مجتمعنا ، بل نحن احق منكم بلعب الدور الذي تدعونه لانفسكم لاننا لم ننصرف للدراسة ولاننا نعمل ولاننا ابناء عمال وفلاحين ومهاجرين من الريف ولاننا ظاهرة جديدة في وسطنا المعدم لا سابق لها ! ».

كان هذا احد مناحي النقاش . كان ثمة منحى آخر اكثر حدة وقطعا . لم يكن اصحاب المنحى الاخير يعبأون بما يقال ، بما نقول نحن او يقولون هم . فلم يكن المقال سوى ذريعة للادلال بالمنبت الاجتماعي . فنحن مدرسون او طلاب اذن نحن برجوازيون ، دون تحديد ، لاننا لا نعمل بايدينا ولم نعرف الجوع والكد والحاجة . فكيف نتصدى للكلام باسم الطبقات الشعبية ؟ وماذا نعرف فعلا عن هذه الطبقات التي ينتمون هم الى لحمها ؟ اليس تنطحنا تسلية عابرة ترافق سني الشباب الاولى وتسبق انصرافنا الى ادارة اعمال اهلنا الذين سنرثهم في يوم قريب ؟ اما الثقافة فالشعب لا حاجة له بها. ان الشعب بحاجة الى الغضب والى الانتفاض والى كم افواه الذين يتكلمون باسمه دون ان يكونوا منه . والغضب هم ادرى به منا . اما الدليل على الامر فهو الحديث الذي يجري الآن : نحسب نحن ان الفقر والجوع والحاجة والثورة مواضيع نقاش ، ونأتي لنناقشها ونستعد لتبادل الحديث في شأنها ولا ننسى ان نلبس قمصانا نظيفة قبل ان نأتي الى الحي الشعبي ولا نرضى الا بالبنطلون الدقيق الكي الذي يبرز حده المستقيم في وسط كل ساق من الساقين ، اليس في هذا كله دلائل ساطعة على اننا نقحم انفسنا في ما لا شأن لنا به وعلى اننا لسنا سوى صيغة جديدة للبكوات الذين يصادرون جهد الشعب ويستغلون سذاجته وعرقه ؟

لم يكن ذلك ليثبط من عزيمتنا . كنا على ثقة من احقيتنا ومن شرعيتنا. كان يبدو لنا الاخرون مصابين بمس او بما يشبه المس . وكانت القرينة الاكيدة على اصابتهم هذه عجزهم عن الكلام الدقيق ، المتصل الحلقات ، الدائر حول موضوع محدد. ولم نكن لنشك في ان دقة الكلام واتصال حلقاته ودورانه حول موضوع محدد انما هي امور نمليها نحن ونستخدمها سلاحا ننتضيه في وجه هؤلاء الاخرين بالذات ونحن نحدس خروجهم عليه وعدم مواءمته لهم ولثقافتهم (اي لتعريفهم لانفسهم ولتعبيرهم عن هذا التعريف) . كانت قطيعتنا المفترضة مع مجتمعنا ترتكز الى تعريف ابتدعناه (والحق اننا ورثناه عن مصدر آخر) للعمل والنظر واغلقنا على انفسنا ابوابه الحديدية . وقد جعل هذا الامر سهلا علينا اننا لم نكن نجر وزر انتماء ثقيل . فلم نكن ابناء عائلات ذات جاه كما لم نكن ابناء اوساط فقيرة تدمغ اولادها بشدة وتترك على ادمغتهم واجسادهم آثار حياتهم الاولى . لم نكن نتحدر من تراث سياسي او ثقافي شديد الوطأة اجتهدنا للخلاص من وطأته وللتحرر منها . لم ننتقل فجأة من وسط الى وسط ومن حياة الى اخرى: فلم نترك الريف للتو الى المدينة، ولا اخترقنا الحدود التي تفصل طبقتين اجتماعيتين الواحدة عن الاخرى . كنا نسبح

في المياه الوسيطة التي تجري دون اندفاع قوي بين الطبقات والمناطق والطوائف والثقافات واللغات . لم نعد ننتمي تماما الى قرانا وضيعنا لكننا لم نمس بيروتيين اقحاحا . ما زالت تشدنا الى القرى والضيع ذكريات طفولة وشباب وحنين الى اشكال حياة نابضة لكن للمقاهي والسينما والمسارح والشوارع في المدينة اضواء كانت تخطف منا الابصار والمهج . نقرأ الصحف الاجنبية ونشرق بالدمع لدى سماع شعر بدوي الجبل . نسترشد بمبادىء برتولد برخت في المسرح ونسكر لسماع فيروز تغني على خشبات او ادراج مسرح بعلبك . نشرب البيرة ونحصي قنانيها الفارغة ونسترسل مع الارجيلة في مقهى الحاج داود او في مقهى الفلاييني . نبدل لباسنا مع تبدل الموضة لكننا نتأخر في مواكبتنا لهذه الاخيرة سنة . نتغنى بالعيون السود النجل والبشرة السمراء ونعشق بنات المدارس الاجنبية ونشتهي آفا غاردنر وفرانسواز ارنول وكاترين دونوف وفرنسواز دورلياك . ننتشي كما في حلقة ذكر بالحديث عن المؤذن وعاشوراء وحاكورة نص الضيعة وسيرة عنترة وصندوق الفرجة ويستوقفنا نقاش آخر فيلم عرض لفودار او انطونيوني اياما او اسابيع . .

ثقافة التفاوت

ليست هذه لوحة متناقضات . اذ لا معنى للحديث عن التناقض بين البيرة والارجيلة او بين الانكل سام والحاج داوود . كنا ننتمي الى عالم متفاوت، يمزج بين عناصر لم يدمج بينها ولم يدرجها في انساق متكاملة، متصلة. لم يكن بمكنتنا ان ندور على محاور متجانسة او على الاقل متناغمة . فكان كل عنصر من العناصر المذكورة يحملنا الى جهة تتماسك حول منطق داخلي مستقل وتنتمي الى تاريخ ينهض على مسبقات خاصة ويفترض مشاعر وقيما منفصلة. ولم تكن الثقافة التي نتغذى منها لتعمل على صوغ هذا التفاوت او التنافر في صور موحدة او متناسقة ، لم تكن هذه الثقافة لتطرح مشكلة هذا التفاوت او التنافر . فلم تتصد السينما ولم يتصد المسرح مثلا لصور المدينة بخليطها البشري والزماني . وبقي الشعر يعاصر وجوها وحقبات لا تربطنا بها الا صلة مدرسية . اما اللغة فلم يسع احد لتطويعها كي تقول وتائر حياتية وتاريخية يملأها التقطع وتنهشها الخروق . الى ذلك كنا يتامى تاريخنا المحلي . التاريخ الرسمي فارغ : الشهداء من ابناء العائلات يطلون علينا من صراع مات في نظرنا قبل ان يولد ، والاستقلال ولد وترعرع في سرايات وقصور وردهات وممرات تفوح منها روائح « المطبخ » والحسابات السياسية الضيقة . والتاريخ غير الرسمي يدغدغ ، بقطاع طرقه وبانتفاضاته الدموية وبحكوماته الخارجة على القانون ، رومنطيقية يقظة . لكنه لا يضفي شرعية اكيدة وحارة على مشاريع التسيير الذاتي وانهاء اشكال السلطة المنفصلة وتلاشي الدولة والشعب الذي يصنع التاريخ دون وسيط . التاريخ الفعلي ، التاريخ الشرعي ، كان يأتي من هناك : من ١٧٨٩ ، من ١٨٤٨،

من ١٨٧٠ ، من « السانكيلوت » ، من عمال الحرير في ليون ، من المسوين (نيفلور) والشارتيست البريطانيين ، من عصبة سبارتاكوس في المانيا ، من السييرا الكوبية او البوليفية ... في هذا النور كانت تشحب وجوه ناصيف النصار وظاهر العمر وطانيوس شاهين . رغم « المباعدة » البرختية التي كنا نتغنى بها كنا بحاجة الى ان نتبنى دون تردد او حذر وجها او اسما او حقبة او عملا . اما الذين تربعوا في سدة دول ، الذين لم يكونوا يوما معارضين عاري القبضات من امثال محمد علي وعبدالناصر فلم نكن نشعر ازاءهم الا باللامبالاة .

كنا نحن اعمالنا الفنية والفكرية الوحيدة . لم يستنفرنا التفاوت وصداه المخنوق في منظومات التعبير الى العمل الفني . لم يكن بيننا شعراء يحملون شعرهم على محمل الجد . ولم يكن بيننا قصاصون . او روائيون . او مسرحيون . او مغنون . واذا ما وفد شاعر مثلا خلع شعره وعلقه على حاملة القبعات في الردهة قبل الولوج الى الغرفة . كنا اعمالنا الفنية، لان التوزع كان نسيج حياتنا . فلم تكن حياتنا تتيح للسلوك او للمشاريع ان تستقر في دلالة مكتملة ، مغلقة ، ناجزة ، كانت كل حركة من حركاتنا تبدو لنا وكأنها نهب للتفاوت الذي نعيشه بشراهة واقبال . وكأنها تحوير جزئي لحركة اخرى تنتمي الى سجل آخر . كانت السجلات هذه تتداخل فلا يستوي خط من الخطوط دون اعوجاج ، ولا يسطع لون دون ان يحول . اما السياسة فكانت العمل الفني المدرك الذي ينبغي له ان يستوعب المتنافر المبثوث في ثنايا حياتنا كلها وان يصوغه متناسقا ، موحدا ، واعيا .

لم نكن ندرك ان التجاذب بين عناصر حياتنا كان ينحو نحو استقرار فعلي يغلب صفا من العناصر على صف اخر . وكان القطع مع مجتمعنا ، مرة اخرى، تعبيرا عن غلبة عناصر على عناصر اخرى .

« الفن » السياسي : الانقطاع

اتخذت غلبة العناصر « الحديثة » على العناصر الموروثة شكل العمل السياسي ، الحزبي والتنظيمي . وليس كل عمل سياسي تعبيرا عن غلبة العناصر « الحديثة » هذه . الا ان عملنا السياسي نحن، كما مارسناه وكما فهمناه وفلسفناه ، كان ايذانا بهذه الغلبة . وتجلى ذلك اوضح ما تجلى في المعايير التي حددت الناس المثاليين الذين تنطبق عليهم المواصفات التنظيمية السياسية . من هم الناس الذين كنا نحلم بهم وبانخراطهم في صفوف التنظيم ؟ وبكلمات اخرى : كيف كنا نتوهم انفسنا وقد تعددنا نسخا بعدد المنتمين الى نواة العمل السياسي ؟

كان على هؤلاء الناس الا يدينوا بشيء لموروث سابق على الانتماء الجديد. اي كان على هذا الانتماء ان يكون بمثابة ولادة جديدة، ولادة طقسية تتم على يدي التنظيم . كان على الرفيق الجديد ان يقطع كل رابط شده في ما مضى

الى عائلة او الى منطقة او الى طائفة او الى حزب ، وان يعلن براءته من مثل هذا الرابط . فهو منذ اللحظة لا يملك تعريفا الا صلته بالافكار والمواقف التي تصدر عن المجموعة السياسية التي ينتمي اليها . حتى الاشخاص الذين تتكون منهم المجموعة ليسوا سوى حملة هذه الافكار والمواقف ولا قوام لهم الا هذه الاخيرة . اما على الصعيد الفكري الذي يمتد ليشمل جوانب عريضة من الحياة اليومية ، فقد كان على الرفيق ان يصرم الخيوط التي لا تحصى والتي تمتد بين ماضيه وحاضره لتصل ما بينهما . ولما كانت هذه الصلة العميقة والخفية تتغذى من عروق لا تحصى يجري فيها دم الزمن الحار ، وبالتالي يستحيل على الحزبي ان يرتجل بدءا جديدا بين عشية وضحاها، لجأنا دون ان ندرك او ندري الى مراوغة ذهنية فاعلة : قررنا ان العمل السياسي ، عملنا نحن ، ثمرة قرار فكري ذهني خالص وانه نتاج استشراف العقل المجرد للحقيقة في مجال السياسة . ولا يقطف هذه الثمرة او يحصل على هذا النتاج الا من استطاع ان يقطع كل صلة بينه وبين ماضيه الفكري وان يتخلص الى غير عودة من ثقل هذا الماضي ويلقي به في البحر او في مزبلة التاريخ . وقد التقينا في سعينا الى الطهارة والبراءة الفكريتين والشخصيتين ب « القطيعة المعرفية » الذائعة الصيت التي نقلها التوسير عن سلفه غاستون باشلار واضفى عليها حلة ماركسية قشيبة . اخذنا نستل سكين «القطيعة» لنميز بصرامة ملؤها الثقة بين الايديولوجية والعلم . وكنا سلفا في صف العلم لا لامتياز فكري يؤهلنا لنكون في صفه ولا لتفوق عقلي وثقافي يمنحنا ما يشبه الحق . كنا في صف العلم سلفا بسبب موقف اخلاقي جذري نطل منه على الاخلاق طبعا لكننا نطل منه ايضا على العلم والحق والسياسة . اي اننا عممنا « القطيعة » وجعلناها تشمل مجالات غريبة عنها ، وركزناها في ارض شخصية اخلاقية ربما كانت مضمرها غير المدرك . انتقلنا الى ضفة اخرى مقابلة للضفة التي يعيش عليها كافة الناس ، لا لعمل اتيناه ولا لانجاز يشهد لنا ، بل تم ذلك بيقين كامل تغذى من ارادة حادة ، ماضية ، بالاخلاص المتفاني لقضية .

النخبة والهوية

اظن انه من المستحيل تفسير هذا اليقين الذي يحف دوما بولادة الهويات الجماعية . فحين تبدأ دعوة يتملك الدعاة الاول يقين بانهم منتخبون، مهما تباينت المذاهب في من انتخبهم . ويشكل هذا اليقين مداد هوية هؤلاء الدعاة ، وتعرفهم على انفسهم بما هم جماعة . اي ان ما يجمع بينهم هو ايمانهم بأنهم يمثلون نقطة بدء وانهم منطلق طريق .

لا غرابة اذا اتسم سلوك مثل هذه الجماعة بالصلف الواضح . فهي نخبة من الناس لا تشك في انتخابها ، وترى في ضآلة عددها وفي انغلاقها على نفسها سمة لا تكذب من سمات الانتخاب . لذا شرعت تنظر الى الآخرين، اي

الى التجمعات السياسية الاخرى ، نظرتها الى كائنات بائدة لا حق لها في الحياة ولا ينهض استمرارها الا على غفلة من التاريخ يستحيل ان تستمر . وكي يستقيم مثل هذا المنظور كان ينبغي ان نقصر دائرة نظرنا واهتمامنا على التجمعات التي نشترك معها في المراجع الثقافية والمعايير الفكرية ، اي التجمعات الماركسية عمليا . اما ما خلا هذه التجمعات فلم نكن نرى الا قاعا صفصفا. وذلك لسبب بسيط هو ان الاتهام بالانحراف عن سوية تاريخية وفكرية تتمثل في الماركسية ــ اللينينية لا ينطبق على الكتائب طبعا كما لا ينطبق على الاخوان المسلمين او على التجمعات الانتخابية التي تحف بالزعامات العائلية البرلمانية . ولم نكن لننتمي الى دائرة تتغذى من الطوائف او من العائلات والمناطق او حتى من الاطار القومي بما هو اطار عائلي موسع . ولم نكن لننتمي الى تاريخ سياسي محلي انتماء فعليا : كان بعضنا عروبيا سابقا ، وكان بعضنا الاخر شيوعيا سابقا ، الا ان هذا السبق لم يكن الا من قبيل سبق الظلمات على ضوء الخلق او سبق الفوضى على استواء العالم عالما . لم يكن من الممكن ان ننخرط في تاريخ « خاطيء » من الاساس، من البدء ، لا نشترك معه في مقدمة واحدة من مقدماته . كان تاريخ مجتمعنا الفعلي يجر معه«ادرانا» لا تاريخ لها في منظورنا وفي سجلنا الفكري ، اذ كنا نحسب انه لا يمكن الا عقل ما يتطابق مع اولوية الاقتصادي في البنية الاجتماعية . اما ما لا يتطابق مع هذه الاولوية ، على غرار غرب خرافي تحدر الينا من ماركسية ضامرة ، فخارج العقل . لا لاننا كنا ندرك او نحدس ان ثمة خارجا للعقل، بل لاننا قررنا ان هذا الخارج هو عدم اللاوجود او عدم ما لا يستحق الوجود . اذن ، رمينا بهذه «الادران» خارج تاريخ مجتمعنا واجترحنا لانفسنا تاريخا صغيرا على مقاسنا . كان هذا التاريخ يبدا طبعا مع اقتحام الغرب مجتمعنا او مجتمعاتنا ، اي مع تكوين الظواهر التي كنا نقرا على هديها التاريخ او الظواهر التي يمسي التاريخ مقروءا على هديها : الراسمالية ، الدولة ، الطبقة العاملة ، الانتفاضات الشعبية ، الاضرابات ، مستويات البنية الاجتماعية ، المدرسة ، الصناعة ، المصارف ، الملكية الزراعية ، التمثيل السياسي ومنشأ الطاقم السياسي ، التيارات الايديولوجية ، الاحزاب ... اما السياسي التحتي (الانفرا ــ سياسي)، والاقتصادي التحتي ، والثقافي التحتي ، كما يقول فرنان بروديل ، فلم نكن لنعبأ بها او لنحدس وجودها الفاعل والمخيم على قطاعات بالغة الاتساع من حياة المجتمعات العربية .

المرجع المحلي

كان الحزب الشيوعي اللبناني وحده يملك بعض الوجود لانه يندرج في مربعات منظورنا للتاريخ ، او لان مقاله المعلن يسعى لان يدرجه في مربعات المنظور الماركسي اللينيني ــ النظارات الوحيدة التي استطعنا لبسها يومها. اما جزئية وجوده فتتأتى اولا عن وهن صلته بالمصادر الماركسية واللينينية.

وكان الحزب يومها ، في مطلع الستينات ، يكاد يكون خاوا من المثقفين بعد ان استهلك رعيلا كاملا منهم اثناءالاربعينات والخمسينات . ولم يبق في صفوفه منهم الا بعض المتادبين الذين يلوكون ثقافة قديمة لم تتحرر من النمطية الستالينية . فالاحزاب الشيوعية العربية لم تمر بفترة نزع الستالينية ، ولم تعرف صراعا فكريا او سياسيا كالصراع (النسبي) الذي اعقب في اوروبا، عام ١٩٥٦، تاريخ انعقاد مؤتمر الحزب الشيوعي السوفياتي العشرين . وقد حذت الاحزاب الشيوعية العربية حذو السياسة السوفياتية في علاقتها بالدول العربية وبقياداتها ، رغم الكوارث التي جرها عليها هذا الموقف ، دون بادرة استقلال . فتحولت الى اجساد مشلولة سياسيا ، ولم يحفظ فيها جذور الحياة الا اختصاصها المهني والنقابي الاقتصادي . فاضافت عزلته السياسية ، التي شرع يخرج منها عام ١٩٦٤ ، سببا الى اسباب ابتعاد المثقفين عنه . وكانت صحافته كالحة الوجه تنم عن فقر دم لا يوصف. رغم ذلك ، وربما بسبب ذلك ، كان مثل هذا الحزب مرجعنا المحلي الوحيد . ولم يكن صعبا ابراز الصياغات التي يبتعد فيها الحزب عن مراجعه المفترضة . لذا احتل هذا التمرين ــ قياس المسافة بين مقال الحزب الشيوعي والمراجع الماركسية واللينينية ــ مكان الصدارة من عملنا . فكنا نقرا الاعمال السياسية الماركسية ونستخرج منها معايير في المعالجة ، ونقيس المعايير المستخرجة على تلك التي تضمرها النصوص السياسية والصحفية الشيوعية . كان يبدو الفارق كبيرا ، طبعا . فحيث تتعدد صور المعالجة الماركسية واللينينية وتتغذى من وسائط كثيرة ومن تراكيب معقدة تفسح في المجال امام التاريخية الفعلية ، الحية ، كانت صور المعالجة الشيوعية المحلية تذوى وتفقر لتقتصر على « محطات » تحليلية غالبا ما لا تمت الى الواقع بصلة .

كان هذا العمل تمريننا المفضل ، كما قلت . وكانت نشرتنا السياسية ، عندما شرعنا في اصدار نشرة واطلقنا عليها اسما فضفاضا (لبنان الاشتراكي) تقتصر على هذا التمرين عمليا . وقد نجح مثل هذا العمل في توفير الاستمرار للمجموعة وفي جذب عدد من الشباب اليها بل وفي جعلها طرفا سياسيا (ثانويا) . ولا ريب ان ما وفر شرط هذا التوسع النسبي وحمل بعض الشباب على الانخراط في صفوف الفريق السياسي الصغير هو طابع الامتحان الذي اتخذه هذا الانخراط ، والذي عزز الوجه النخبوي الغالب على الفريق . لم يكن المضمون السياسي ليلعب دورا هاما في توجه بعض الشباب شطر المجموعة السياسية . وما يسمح بالقاء مثل هذا الحكم عزوف المنتسبين، اللاحق على الانضمام ، عن التدقيق في صحة هذا المضمون وفي مدى ملاءمته لشروط فاعليتهم السياسية في وسطهم وفي الدوائر التي يعيشون فيها ويتحركون . فلم يكن وفود افراد جدد يغير في كثير او قليل في اسلوب سلوك المجموعة وفي علاقاتها الداخلية وفي علاقاتها مع الخارج . بل، على النقيض من ذلك ، كانت المجموعة تلتهم الوافدين وتدخلهم في قوالبها . كان

يقبل الجدد على المجموعة كما يقبل الشباب البالغون على الطقوس التي تكرس الاعتراف بهم اعضاء كاملين في سلك الراشدين وفي المجتمع : الخشية تملأ قلوبهم ، والركب تصطك خوفا من استبعاد يعني حكما مهينا وقاسيا بعدم الجدارة والكفاءة . فالمرشح للانضمام الى سلك « النخبة » ينزع الى المبالغة في مكانة النخبة المفترضة هذه، ويستبق رفع مكانته الشخصية اللاحقة المتأتي من جراء انضمامه . لم نكن ندرك اثر انطوائنا على انفسنا وتشددنا في قبول مرشحين جدد وادعائنا تأسيس معالجة سياسية جديدة، على موقف الآخرين منا . وبالتالي لم نكن « نلعب » بهذه الامور التي حملناها على محمل الجد . الا اننا كنا ، كما اظن واحسب ، نحدس ما يخلفه السلوك النخبوي التاسيسي من اثر في نفوس الآخرين .

الامتحان وشهوة السياسة

كان الامتحان مؤسسة كاملة من مؤسسات المجموعة الناشئة . وكنا نتبع فيه مسارا محددا يملك محطات متمايزة ومنفصلة . وعادة ما كانت الامور تبدأ باشارة من احد الرفاق الى احد اصدقائه او معارفه تفيد (الاشارة) ان هناك من يود الانضمام الى المجموعة السياسية الناشئة . وغالبا ما كان يرفق الامر

بتقرير يضمنه الرفيق تقويما للشخص الذي يرشحه . ورغم ان التقرير المذكور كان شفهيا ولا يخضع لمقاييس شكلية محددة الا انه كان غاية في الدقة وفي الرتابة . كان على التقرير المتقن والمقنع ان يقول بوضوح قرف المرشح الجديد من العمل السياسي القائم ومن اشكاله واحزابه ومجموعاته ، وان يسرد بالتالي ولو تجربة من التجارب التي تكللت بالعزوف والبرم ، قبل ان يخلص الى وصف « اعجاب » المرشح باعمال المجموعة الكتابية و « اقتناعه » الكامل بما تتضمنه من احكام وبما تنم عنه من « مستوى » نظري (واقتناع واعجاب ومستوى كلمات لازمة في مثل التقرير المشار اليه) . وتلم شتات التقرير وحدة روائية استعارت لحمتها من عناصر الرواية البرجوازية كما يصفها لوكاش : في المرحلة الاولى يبحث البطل عن قيم رفيعة تحدرت اليه من مجتمع سابق (كان يحل محله في حالتنا قراءات خرافية) . في المرحلة الثانية يسافر البطل في مجتمعه ساعيا وراء القيم العالية عاملا على تحقيقها فلا ينفك يتعثر في سعيه هذا وينتقل من خيبة الى خيبة ومن فشل الى فشل . في المرحلة الثالثة والاخيرة (وكانت هذه المرحلة « اضافة » منا الى التراث البرجوازي الا انها اضافة تقتصر في الواقع على عودة الى نمط القصص الفروسي الاقطاعي) في المرحلة الثالثة والاخيرة يعثر البطل على ضالته ويتوج سعيه المضني بقراءة ما كتبناه ! عند هذه النقطة غالبا ما كان يعجز الراوي ، اي ناقل التقرير، عن المضي قدما . فالاعجاب المذكور يستنفد في ... الاعجاب . ولم يكن تعدي الاعجاب باشارات الى الجدة والدقة والامانة للماركسية ليضيف الى الاعجاب الخالص امرا محددا . كان يتصرف المرشحون الجدد ، قبل ان نعرفهم كما كان يتصرف الرفاق القدامى . اي كان يهيمن على سلوكهم خشوع كامل شبيه بموقف المتذوق الفني . فهذا الاخير ينظر الى العمل الفني نظرته الى كل منغلق على نفسه ضروري بكل اجزائه التي لا يمكن فصل جزء منها عن سائر الاجزاء . كان التنظيم عملا فنيا مكتفيا بذاته ، ضروريا ، متكاملا . لم يكن اداة اجتماعية تقاس، دورا ومواصفات، في ضوء المهام التي ينبغي عليها ان تؤديها ، وتشحذ بالتالي في ضوء هذه المهام ، وتعدل بعض عناصرها (طبعا) كي تقدر على القيام بمهامها ووظائفها . كان القياس العملي ابعد ما يكون البعد عن ذهن المرشحين الجدد او الرفاق القدامى . لذا كان افق النقاش الفعلي ، اي النقاش الذي يعيد النظر في البدهيات المفترضة وفي نتائجها والنقاش الذي يفتح السياق الفكري والعملي على معطيات جديدة يملي اخذها في الحساب بناء سياق مختلف ، كان افق مثل هذا النقاش مسدودا . فالسياسة كانت موضوعا معقدا يتجاوز مسألة اختبار اداة فاعلة للدفاع عن مصالح فئوية او عامة ، بعيدة المدى او قصيرته . كانت السياسة موضوع (غرض) شهوة اساس من شهوات النفس ـ اذا جازت استعارة لغة الفلسفة الديكارتية ـ وهي شهوة تتداخل فيها الرغبة في الخلاص مع الرغبة في الاكتمال، كما يتداخل فيها السعي الى تبوء مكانة متميزة مع الحلم بفاعلية صافية .

وتتوج هذه الشهوة المركبة نرجسية عميقة تحيل الفعل الى تامل جمالي خالص . الا انها لم تكن شهوة متعالية على الشروط الاجتماعية والظرفية المحيقة بها .

الطالب الجنوبي

كان « الراغبون » بشرا يجرون تحديداتهم وينوءون بثقلها ، مثل كل البشر . كانوا في معظمهم ، او حتى كانوا كلهم ، طلابا ومدرسين وموظفين . وكانوا جنوبيين ، من جيل الهجرة الثاني . وكان اكثرهم من الشيعة . ماذا يعني تجاور هذه التعيينات ؟ كيف يمكن الخلوص من الوصف شبه الاحصائي الى كنه ما يترتب على ابواب الوصف هذه ؟

يصعب على المؤرخ (بالمعنى الحرفي لا المهني) الذي يسعى الى التعليل ان لا يطابق بين ما يعرفه من النتائج وبين المقدمات ، فيخيل اليه دوما ان النتائج متضمنة في المقدمات وان هذه الاخيرة حبلت على الدوام بالاولى . فما عليه، وهو منصرف الى تعليله ، الا ان يحدس النتائج في رحم المقدمات ويستولدها منه دون افتعال او جهد . وهذا يعني ، في الوضع الذي انا فيه الآن ،ان اربط بين ما سبق قوله في الصفحات الاخيرة وبين ما تتضمنه اسطر المقطع السابق . فتتطابق دون عسف الظواهر التي سبق وصفها مع التعيينات الاجتماعية السريعة التي وردت للتو . هل يمكن خرق هذا الاسلوب ؟ لا ادري ، انما سأحاول .

ماذا يعني ان الرفيق كان طالبا او مدرسا او موظفا ، وانه كان جنوبيا ، الخ .. هذه الامور تعني ، في المصف الاول ، ان الحزبي الجديد مهاجر ، منتقل، ظاعن ، ومقيم في آن واحد . لقد غادر اهله الريف الجنوبي الفقير منذ عشرين سنة تقريبا ، اي في اعقاب الحرب العالمية الثانية او في اثنائها ، ويمموا وجههم شطر بيروت ، العاصمة التي تعصم من البطالة ومن كفاف العيش . في الريف كان الاهل اول ما كانوا عائلة، كانوا حزبية عائلية ، يقيمون في احياء الحزبية ، ويتزوجون فيها ، ويكسبون معيشتهم داخلها او مع حلفائها بيوتهم مشرعة على الحي وازقته. والحي يكاد يلتهم المدرسة ويجعل منها مرفقا من مرافقه او يحيلها مؤسسة من مؤسساته لولا ان المدرسة حلقة من سلسلة تتحدر الى الريف كله من العاصمة ، وتلتقط بعض ثمارها من المتعلمين فتزجهم في مكاتب ودوائر الدولة او تفسح في المجال امام بعضهم فيمضي الى الجامعة وقد يتمرد على المكاتب والدوائر العامة فيحترف مهنة حرة . لم تكن العائلة وحدها حزبية : كانت الارض حزبية ، فتتجمع الملكيات الصغيرة في طرف من الضيعة دون غيره ، وكان السكن طبعا حزبيا ، وكان الزواج يتم بين فصائل العائلة او التجمع ، وكان الاتجار البسيط يقبع في حدود الحي او الناحية .. كان الانتقال الى بيروت يعني ، ولو داخل حدود ضيقة ، قريبة ، سكنا جديدا، بالمعنى الحاد لكلمة سكن . كان يعني جيرانا جددا ، وفسحة جديدة،

واحتمال قرابة مختلفة ، وموقعا مغايرا من نظر الآخرين ومن فضولهم ومن سلم تقديرهم . هذا الى امور اولية وبديهية اخرى كالعمل والعيش والعلاقة بالعملة والسوق والدكان والزعيم العائلي . الا ان الجدة كانت نسبية ، كما اكتشفنا ، والحق يقال ، لاحقا . كان الاهل ينزعون الى بعث الحي مجددا في كتل المدينة : فيقيمون بالقرب من العمومة والخؤولة ، ويحرصون على مؤونة الضيعة ، وتربط بينهم شبكة غرضية سياسية ثابتة ، متينة الحلقات . وحتى اماكن العمل التي كان ينبغي لها ، في ما كنا نحسب وفي ما كنا نقرا ، ان تفكك عرى القرابة والزعامة الآتيتين من عالم سابق سائر الى الاندثار ، حتى اماكن العمل هذه كانت نهبا للقرابة والجيرة والوساطة . فيعود ويلتئم شمل الاقارب والجيران وعائلات الحي في المعمل الراسمالي ـ الذي يفترض فيه ان يحيل العاملين الى قوة عمل خالصة ، الى مقدرة مجردة ذات ثمن نقدي بارد ـ . كانت المدينة اسوارا وابراجا من الاسمنت تنهض على لبنات انتقلت من القرية . فكان الريف يتنفس في ثنايا المدينة ويقيم تحتها وفي تضاعيفها خلاياه وممراته ومستودعاته .

الا ان الحي المديني ، رغم انطوائه على قراه وعائلاته وغرضياته المتحدرة اليه من الريف ، مشرع على عالم ارحب بكثير . وقد تكون هذه الرحابة جمعا خارجيا للكتل تقاوم التداخل والاندماج ، وقد يكون التعدد اصواتا متنافرة لا ينتظمها نغم جامع . الا ان للرحابة والتعدد هذين اثرا في الانتساب اكيدا. فلا يعود الواحد ينتسب (يعلن نسبه) الى « اصل » قريب ، بديهي ، لا يقوم بينه وبين المنتسب حاجز ا وعائق . اي بكلمة ، يبطل ان يكون الانتساب طبيعيا ، بمعنيي الكلمة : بدهيا مباشرا ، ومرتكزا الى عنصر طبيعي كالدم او القرابة او الارض . على المرء ، والحال هذه ، ان يبني نسبا او صلة بمرجع ثابت. عليه ان يفتعل مثل هذا النسب في وضع جديد يمثل كلام انطونان ارتو حده الاخير : « انا ، انطونان ارتو ، ابي وامي وابني » . في مثل الوضع الجديد هذا لا يعود تعريف الواحد بنفسه معطى كما في كتب التاريخ العربية التي تروي لقاء هارون الرشيد مع احد آل البيت المتخفين فيقول الاول للثاني : « من انت ؟ » فيتعلثم الثاني ، فيكرر العباسي الحاكم سؤاله في صيغة مكافئة : « انتسب ! » . من انت اي ابن من انت ومن اية عائلة . وعندما يبطل التعريف ان يكون انتسابا معطى،على الواحد ، على غرار ارتو الانف الذكر ، ان يستنبط تعريفا محوره المرء نفسه : علاقاته ، اعماله ، الاشكال التي يستنبطها والتي يندرج فيها مع الآخرين في علاقات متشابكة يعرفه تشابكها واتخاذ هذا التشابك وجهة محددة واستواؤه على وجه دون آخر .

لا ريب ان جيل الهجرة الثاني اكثر قدرة من الجيل الاول على التعريف الذاتي وهو الجيل الناحي منحى الجمود على علاقاته الموروثة ، والمحتفظ بكل الخيوط التي تشده الى موطنه الاصل . الا ان هذه القدرة ، بمعنى الفسحة والامكان ، تترتب على اختيار وافتعال واقدام . اي انها تزيح مركز الثقل الى

الذات ومبادرتها . ففي الاقدام على عمل تعريف جديد للذات يخرج الفرد على قواعد مألوفة سالفة ، ويسعى الى اجتراح قواعد جديدة . وفي الخروج والاجتراح هذين يحتل العمل الطوعي الذي يصدر عن ذات حرة نسبيا مكان الصدارة . فاذا بالتعريف الجديد مغامرة تختبر فيها الذات طاقتها على الابداع والاستنباط والتوليد . الا انها ايضا مغامرة تقيس فيها الذات طاقتها على التأكيد ، تأكيد نفسها من خلال ابداعها واستنباطها .

واجه جيل الهجرة الثاني مثل هذا الاختبار . واسهم في جره الى الاختبار المذكور « تحرره » بوساطة المدرسة ، من وراثة المهنة الابوية وربما العائلية (اذ كانت بعض المهن تنتقل بالوراثة داخل العائلة الواحدة فتختص العائلة من العائلات بمهنة تبقى فيها) . اشرعت المدرسة الباب على « رحاب » الدولة، اي على « رحاب » الوظيفة العامة . والوظيفة العامة هي ما ينتشل العامل من حماة المحدود والخاص لتطل به على افق العام . على غرار الدولة والبيروقراطية ! وقد شكل المثلث المؤلف من بيروت والمدرسة والوظيفة كلا متماسك الحلقات . وتتلاحق هذه الاخيرة وتتتابع على وجه يجعل من تلاحقها وتتابعها ضرورة لا مهرب منها ولا معدى . كان الحزبيون والمرشحون ، على حد سواء ، من طينة هذا السياق . خرجوا من جنوبهم مرتين : مرة حين غادروه مع اهلهم ، ومرة ثانية حين سلختهم المدرسة عن عمل اهلهم ، والى حد ما ، عن علاقات هؤلاء الاهل ونمط معيشتهم . الا انهم لم يغادروا الجنوب ولم ينسلخوا عن عمل الاهل لينخرطوا في ثقافة جديدة تمنحهم هوية واضحة تتيح لهم تحديد موقعهم من الجنوب والأهل والمدينة التي وفدوا اليها . كانت المدرسة خليطا من ثقافات ومن عوالم لا تعد للاغتراب ولا تمهد لالفة جديدة . لم تكن المدرسة لتعد لشي او لتمهد لامر . ففي المدرسة ينتظر الطفل حتى يصبح راشدا وفي سن العمل . وفي هذه الاثناء يلقن القراءة والكتابة والحساب ، وتوابعها : الادب والتاريخ والرياضيات والفيزياء . الا ان ما يلقنه الطفل ليس سوى تقنيات مجردة ، معلقة ، ولا يربط بين التقنية واختها رابط . وليس ثمة ما يعين الطالب على ان يندرج في تاريخ ، في زمن ، في مشروع ، في افق . ليس ثمة ، في هذا التلقين ، ما يساعد الواحد على ادراك موضعه من عالم ، من العالم . غير ان هذا التعليم يملك فاعلية غريبة في حمل المتعلمين على الانفصال عن حياتهم ، اي على امتلاك وعي زائف ، كاذب ، بالعالم الذي يعيشون وسطه . لا ريب ان التعليم وحده لا يملك مثل هذه القدرة لكنه يسهم بسهم وافر في تكوين مثل هذا الوعي . فهو عام عمومية مقطوعة الجذور من ارض الخاص التي لا تتولد عمومية الا منها . وهو مغلق انغلاق المبادىء والاسس التي لم يخضع توليدها للنقاش والاستنتاج . وهو متراتب تراتب الاهرام التي نسيت انها انشئت لبنة لبنة وحجرا حجرا . لذا فان مثل هذا التعليم ، والحياة الاجتماعية التي تحف

به وتربطها به غير صلة نسب ، لا يفضي الا الى وعي مستقل للحياة الاجتماعية، اي الى وعي منفصل يقول صلته بالاحداث والوقائع والسيرورات في لغة عامة، مفككة ، فارغة ، باهتة ، في لغة جافة النسغ لانها لغة عالم آخر هو تارة عالم الغرب (عالم مؤلف من فئات الغرب) وتارة لغة تاريخ انقضى (ونسينا تماسكه النسبي عندما كان متماسكا) .

اما «الدولة» ، اي الادارة ، فكانت مآل هذا التعليم ومصبه في نظر الطلاب الجنوبيين . كان الطالب ، بوساطة الادارة ، يستقل عن الاهل وارتباطاتهم ، وعن جذورهم في الريف وفي العائلة وفي العصبية . فينتقل من العام (الشامل) التعليمي الى العام العملي . الا ان العام العملي منخور ، فعلا ، بعلاقات الاهل . فالمراتب الادارية العليا توزع تبعا لمعايير سياسية، وتسوس هذه المراتب التعليم الذي اوكل اليها في ضوء المعايير التي حفت بتوظيفها . ويخضع التعليم بمجمله لمتطلبات املتها مهمة مركزية اوكلت الى التعليم ، الا وهي نقل اللبنانيين من المجتمع الذي يعيشون فيه الى فكر (وهم) مجتمع تحلم به الفئات المسيطرة (وربما شاركتها حلمها هذا صفوف واسعة من « الشعب ») . اي الى فكر (وهم) مجتمع يجمع الاضداد دون تناقض او صراع : يجمع « الشرق » و « الغرب » ، «الماضي» و «الحاضر» ، « الارض » و « التاريخ » ، « المجتمع » و « الدولة » ... ولما كان يستحيل على التعليم ان ينقل المجتمع من حال الى حال فانه ابدع لغة ثقافة هذا المجتمع الموهوم الذي تفتقت عنه المخيلة الاجتماعية اللبنانية . فاذا بها اللغة التي نعرفها ونتكلمها في معظم الاحيان : فهي اما لغة الفروقات التي لا يجمعها جامع واما لغة التلاوين الطفيفة التي تكاد تندمج . وهي ، في كل الاوقات، لغة النتائج العامة ، الشاملة ، النهائية ، التي حذفت السيرورات المتعرجة والمتناقضة المفضية الى هذه النتائج . ان اللغة التي يولدها التعليم اللبناني بمختلف مراحله ، وتشيع انطلاقا من التعليم في ارجاء الثقافة اللبنانية ، لغة وصول موهوم لا لغة سفر وانتقال وتجوال . انها لغة انسلاخ يسارع الى تجميد المسافة التي تفصل المنسلخ عما كانه ، كما تسارع الى نصب علامات الموقع الجديد والى ركزها في الابد اذا امكن . اي انها ليست لغة انبثاق تقول ارتجاف التكوين وتردده ونكساته واحتمالاته .

كان الرفاق من ثمار هذا التعليم وثمار هذه الوظيفة (الادارة) ، الى كونهم ابناء الجيل الثاني من الهجرة. اي كانوا ابناء لبنانيين يشعرون انهم مستضعفون. فهم لم يتماهوا مع السلطنة المنقرضة التي نظرت اليهم نظرتها الى «روافض» اي الى اناس مشكوك في دينهم وفي اخلاقهم وفي امانتهم للدين الحنيف وانتسابهم اليه . كما لم يتماهوا مع الفرنسي الذي باعدت بينه وبينهم فوارق الدين والتاريخ واللغة . فكانوا مسلمي المسلمين ، كما يقال ان المسلمين اللبنانيين لبنانيون من فئة ثانية ومن رعيل ثان ، وهذا ما كانوه فعلا . ولم يرثوا من تاريخهم العائلة المتينة ، المتماسكة ، التي يهيمن عليها اب شرعي

غير مثلوم الابوة ولا الشرعية ، كما لم يرثوا التجمع الطائفي المرصوص البنيان الذي يتوارث وحده كلمة الحق ويلخصها . لذا عانى هؤلاء اللبنانيون الجنوبيون (الذين لا اعرف غيرهم) من شرعية كسيرة ، اذا جازت العبارة. فهم في ما يعملونه ، وفي ما يقدمون عليه ، او يزمعونه ، غير واثقين الثقة كلها. انهم في وضع من لم يتلق وكالة ثابتة لا لبس فيها ولا تحفظ . اي انهم وكلاء مع التحفظ . فشأنهم شأن الفرد الذي لا يجرؤ على استعادة ارث ابيه وكأن بنوته غير ثابتة او يخالطها بعض الريب . لما كان هذا شأنهم عمدوا الى المطالبة بحقوقهم المهضومة ، بحقوقهم التي هضمها الجميع ، الاقوياء والذين يقلون عنهم قوة ، على حد سواء . ويكاد لا يخلو جنوبي من حس" مبهم بالسرقة ، بأن ثمة من سرق له شيئا ما لا يدري على وجه الدقة ما هو . الا ان هذا الميراث التاريخي من المشاعر شرع يتغير مع النزوح الى المدينة والهجرة الى المغترب ومع العمل والمدرسة والوظيفة . شرع « يصمد » : ادرك احتمالات استخدام المواطنية وحقوقها ، ولوح بالعدد في اطار سياسي لعب العدد فيه على الدوام دورا اساسا ، واقبل على المدرسة التي تفتح بعض سبل «الارتقاء»، وهاجر ، واثرى ، و« تلبنن » .

كان الرفاق من هذه الطينة المتعددة العناصر . كانوا يسعون وراء هوية يستبدلون بها هوية الاهل ، المهاجرين الاول . وكانوا من ثمار الثقافة « الوصولية » والادارة المنخورة . وكانوا يصمدون ويتحررون من دونية الطائفة الثانوية .

النص والظروف

ليس ايسر على التحليل، كما سبق وقلت، من ان يلائم بين سمات المجموعة كما اتيت على وصفها، وبين العناصر التي اتسم بها الموقف الفكري والثقافي المولد للمجموعة والجامع بين افرادها. فيبدو اللقاء بين المجموعة، وبين الموقف طبيعيا، كاملا، اي معجزا ــ شرط اطلاق الصفة الاخيرة على كل اللقاءات التي تحصل بين البشر والظروف التي يعملون فيها. وهذا ما تسعى كل الحركات السياسية، وكل المجموعات قبل ان تتحول الى حركات، الى تأكيده . فهي كلها، في زعمها، جواب تاريخي، ضروري، عقلاني، على اوضاع حتمت تكوينها وولادتها ونموها . وهو ما لا شك فيه شرط الانتباه الى الحيز الذي تحتله الضرورة التي تتولد عنها الحركات السياسية والاجتماعية.اذ ان الضرورة الانفة الذكر لا تتساوى في كل الحالات، ضيقا واتساعا، سطحية وعمقا. فثمة ضرورات ثانوية، هامشية، ترفدها ظروف ضئيلة التأثير في مجرى الاحداث، ويعبر عنها بشر بعيدون عن امتلاك الصفات التي يتطلبها هذا التأثير. في هذا المنظور توازي او تساوي الضرورة المعنى. اي يمسي ضروريا، او يبدو ضروريا كل ما يملك مقومات الدلالة او المعنى، وهي مقومات قلما افتقدت اليها ظاهرة مهما اوغلت في الاغراب او ضربت في الاشكال .

اعود الى طرفي الظاهرة موضوع المعالجة، اي الى المجموعة السياسية والتنظيمية والموقف الذي حملته والتفت حوله. لم يكن التلاؤم بين الطرفين جليا في كل عناصر الصلة. لم يكن المرشحون للانضمام الى المجموعة «غرباء» او «لامنتمين» فعلا. لم يكن بينهم من امتلك تجربة سياسية فنية باعدت بينه وبين الحزب الذي كان ينتمي اليه وجعلت من صوغ علاقات سياسية جديدة هاجسا ملحا. لم يشكل الدمج بين اشكال العلاقات الاجتماعية، من ريفية ومدينية، مرتكزا من مرتكزات التوجه الجديد . لم تحتل التجربة الجنوبية مكانا متميزا من «تراث» المجموعة الجديدة. لم تشكل الدولة محورا من محاور الاهتمام،الخ. اي ان الصلة لم تكن واضحة بين توجه الافراد الذين التقوا حول النصاعة النصية لماركسية ــ لينينية مزعومة وبين الشروط التي صدر عنها هؤلاء الافراد فعلا. لم تكن الصلة واضحة اي لم يكن ثمة علاقة سببية مباشرة وايجابية بين الشروط المذكورة وبين التوجه المدعي الجدة (والذي كان جديدا الى هذا الحد او ذاك). فقد قام التوجه على افتراض مؤداه ان الجذورالاجتماعية اضعف من ان تحتوي المشروع السياسي الثقافي ومن ان تطبق عليه، وان القطع الفكري المزعوم والذي يقوم على ترديد نصوص وعلى تبويب بعض الظواهر في ضوء هذه النصوص قمين (القطع) باجتراح كائن سياسي يملك كل مقومات الوجود والنمو .

لا شك اننا لم نستنبط حتى هذا الوهم. فهو قائم حرفيا في **ما العمل؟**، في نظرية الحزب، والمثقفين وعلاقة هذين الطرفين بالطبقة العاملة. الا ان ثمة فارقا كبيرا هو ان النظرية المذكورة كانت عنصرا بين عناصر لا تحصى في وضع اجتماعي وسياسي معقد، فكان يمكن التراجع عمليا عنها قبل ان تنقضي سنتان على صوغها، وكان يمكن دحضها (وقد دحضت) على يدي منظرين اخرين ومقارعتها تارة بالتجربة الروسية نفسها وطورا بالتجربة الالمانية. اما في وضعنا فقد كانت نظرية الحزب «الثوري» تسبح في فراغ سياسي وفكري شبه كامل. كان في مكنة افراد لا تربطهم علاقة ما، ولو واهية، بمكونات الوضع الاجتماعي والسياسي ان يتسلحوا بصفحتين من **ما العمل؟** ليضفوا شرعية ما على الانطلاق في عمل مستقل. والخطير في الامر ان هذه الشرعية كانت تبدو ثابتة في نظرهم،ولا تبدو كاملة الوهن في نظر حزبيين اخرين. فكان عدد ضئيل من اعضاء الحزب الشيوعي اللبناني يعترف بـ «فائدة» وجود مثل هذه المجموعة. وقد سعى هذا الفريق من الشيوعيين الى تضمين نقد الحزب الشيوعي ممارسته السابقة على صيف ١٩٦٨، تاريخ انعقاد المؤتمر الثاني، عددا لا بأس به من ملاحظات النشرة التي كنا نصدرها. وقد تضمن النقد المذكور هذه الملاحظات فعلا، كما يمكن لاية مقارنة بين النشرات وبين صيغة نصوص المؤتمر ان تلاحظ ذلك .

تتلخص النقطة التي اتطرق اليها في ان الشرعية السياسية (والتاريخية، اذا شئنا المبالغة) لم يكن ليضفيها على المجموعات المختلفة الانبثاق من ارض المجتمع ومن التراث التاريخي الذي ينوخ على هذه الارض ويلقحها في انفتاحه على

الزمن الاتي. كان يضفي الشرعية السياسية (والتاريخية) على التيارات السياسية صدورها عن فكرة او عن قيمة ، والاصح عن فكرة / قيمة خارجية. ولا يصح الامر في صدد المجموعة التي اروي بعض جوانب مسارها فحسب، بل يصح في صدد التيارات السياسية التي اعرفها قاطبة، مع تفاوت كبير في دور الفكرة / القيمة في تأسيس التيار السياسي وفي مفصلته على العناصر السياسية الاخرى : على التربة العائلية او الطائفية، على المؤسسات، على الاحداث الكبيرة التي تعصف بالوضع في ظرف من الظروف ... ولعل مرد رسو الشرعية على عنصر فكري/قيمي خارجي حدس الوعي المحلي بمختلف اشكاله خارجية المحرك والفعل التاريخيين واقتصار الداخل على مقاومة سلبية ومرتبكة من غير افق ايجابي يتجاوز تأكيد الهوية .

لم نخرج في اعتصامنا بحبل ماركسية لينينية نصية، وفي تأكيدنا شمولها كافة مظاهر حياتنا، وفي يقيننا باندراج حياتنا في ثناياها كاملة، لم نخرج في ذلك كله عن خط ثقافة غالبة اختلفت تعبيراتها وتباينت الا انها التقت كلها عند تكرار بنية اساس، لخصت عناصرها للتو. وفي حسبي ان مثل هذه البنية يتيح لارادة الفعل التاريخي او السياسي او الاجتماعي او الثقافي ان تتعالى على شروط اندراجها في النسيج المتداخل المتحقق، وان تتحرر (واهمة) من ثقل

هذا النسيج المشبط، وان تزيح جانبا مشكلة استنباطها تاريخا مختلفا جديدا. ففي صدور الارادة عن فكرة/قيمة متحققة في تاريخ اخر، تارة غربي وطورا اسلامي او عروبي، دعة ما بعدها دعة، وطمأنينة ما وراءها طمأنينة. اذ ان في هذا الصدور الدليل الراسخ على «حقيقة» ما يصدر عنه، وفيه الاطمئنان، الى تماثل التاريخ الصائر رغم المظاهر المعاكسة والمعرقلة الى سوية واحدة لا تتغير. ولما كانت الحركات التي تهز تاريخنا فعلا سرعان ما تذوي وتتلاشى غير مخلفة وراءها سوى بعض الزبد الذي سرعان ما ينطفىء كفقاعات الهواء ، فان الافكار / القيم وحدها تبدو وكأنها تملك بعض الكثافة التاريخية ، اي بعض الاستمرار والتكامل .

كانت رغبتنا السياسية تمثل مغالاة في هذا الاتجاه العام والمشترك . كنا نبحث عن الشكل المصفى في الامور التي نتطرق اليها. كنا نريد الشكل التنظيمي الذي يلخص ماهية التنظيم، ديمقراطية وتمثيلا وتماسكا. فيممنا وجهنا شطر الظاهرة التي مثلت جوهرة الظواهر الاشتراكية الديمقراطية، اي شطر عامية باريس في صيغتها الماركسية (ومن المعروف ما لم نكن نعرفه ان الماركسيين لم يكن لهم يد طويلة او قصيرة في اتخاذ العامية المجرى الذي اتخذته ولم يساهم الماركسيون الا في تطويب العامية وفي سبكها قوانين وقواعد كتبية). ولم نطرح على انفسنا يوما مسألة قياس الشكل التنظيمي على المادة السياسية الفعلية. فالامانة للمبادىء والنصوص والقيم تتقدم على السياسة وتلتهمها. اما العمل السياسي فكنا لا نميز بينه وبين الكلام السياسي، ولا سيما الكلام المكتوب. فكان على العلاقات السياسية، داخل المجموعة وخارجها، ان ترسو على القواعد التي يمليها صوغ الكلام المتناسق الذي ينضح بالركائز النظرية التي يبطنها ولا يبوح بها حياء وعفافا. وقد غلبت في صفوف المجموعة فكرة بدت وكأنها المفتاح السحري لمسألة الديمقراطية رغم مناقضتها التامة للوقائع القائمة . لما كانت السياسة تتلخص في الكلام السياسي وفي اعداده خلصنا الى ان العلاقات السياسية هي تلك التي تقنن وتنظم تداول هذا الكلام بعد صوغه. فأعلنا، بقرار مبرم، ان الكتابة جماع عمل الرفاق لا مبدأ فحسب بل فعلا. فكان المقال الذي يصدر في النشر ،والذي كتبه احد الرفاق لوحده عمليا واجتهد وان يأتي منسجما ليس مع خط غير موجود ولم ينجح في ان يوجد يوما،بل مع اسلوب في التفكير او حتى مع ما تسميه الفرنسية «لونا من الحس»)، كان هذا المقال يمتلك جماعيا على وجه خالص السحر. ولما كانت المقالات تصدر غفلا من كل توقيع، وكانت هذه قاعدة مطلقة اريد بها تجسيم مشاركة الجميع واضفاء طابع مشترك على العمل السياسي الاساس، سهل على الجميع ادعاء المشاركة. ولم يكن هذا الادعاء تنطحا «نفسانيا» فرديا. فقد كان لاغفال التوقيع ولاعلان جماعية العمل وظيفة مؤسسية ذات تأثير نفساني مقصود وان لم تقتصر على هذا التأثير . وترمي هذه الوظيفة الى الربط بين المقال السياسي وبين فكر عام مغفل يمثل العقل السياسي في ذاته»، اذا جازت العبارة. ازاء هذا العقل في ذاته تمحى

الفروقات الفردية وتتلاشى ويمسي اصطلاع فلان او فلان الاخر بالكتابة والمعالجة والاستنتاج امرا عرضا لا يعول عليه. فالفكر يأتي الى التنظيم ويهبط عليه . وهو يختار هذا التنظيم دون غيره لموقعه من العملية السياسية، كما كنا نقول بلغة بنيوية مفعمة بالبداهة. فاذا بدت المقالة جيدة ونجحت في اضاءة جوانب من الحدث السياسي غفل عنها تحليل الحزب الشيوعي او تعليق القوميين العرب، سطع دليل قاطع على صواب المشروع السياسي الذي نضطلع به برمته. ولما لم يكن من العسير ان يسلط الضوء فعلا على جوانب غفلت عنها كتابات المذكورين (وكانت كتاباتهم تغفل عن جل الامور) حظينا بالدليل تلو الدليل على ارتفاع كعبنا وكعب سياستنا، وازددنا يوما بعد يوم ومقالة بعد مقالة ولها بماركس ولينين وتلامذتهما جميعا. وازداد وله الرفاق بالتنظيم ويقينهم بأنهم على درب الحق سائرون . ولم يفل عزيمة احد ان ثلاث سنوات او اربع انقضت على البدء في «العمل» والتأمل ولم يتجاوز عدد اعضاء التنظيم عشرات تقل عن عدد اصابع اليد الواحدة .

المساواة في النخبة

لعب وهم المشاركة دورا مركزيا في شد عرى التنظيم الناشيء وفي استقرار اعضائه وعلاقتهم به. وتلاشت معايير الحساب كلها : معيار الزمن ، ومعيار العدد، ومعيار الفاعلية، ومعيار الامتداد. كان كافيا ان تصدر النشرة مرة كل شهرين او ثلاثة اشهر ، وان يتعرف الرفاق فيها على جرس مختلف عن اجراس **الاخبار** و**الحرية** و**النداء** (لم يكن احد يقرأ **المحرر** او **الراية** مثلا) حتى نتمطى راحة واطمئنانا. لم تكن صلة النشرة بالأحداث امرا ذا بال، بل لم يكن ما تتضمنه فعلا من احكام ومن وجهات نظر ليشغلنا كثيرا. كانت النشرة اقرب الى الطقس السحري الذي تجدد جماعة من الجماعات بادائه الرابط الذي يشد ما بين افرادها . فكل ما يطلب من الطقس، والحال هذه، ان ينفرد عن الطقوس الاخرى ويمتاز عنها بسمات خاصة. وكانت تتلخص سماتنا في الاكثار من الاستشهاد بالأئمة المعصومين، وفي محاكاتهم ما امكن في استنتاجهم لاتجاهات اجتماعية وسياسية عريضة لا بد ان ينتج عنها الويل والثبور وعظائم الامور. واعظم هذه العظائم الثورة الاشتراكية طبعا. فكنا نرى قبضتها في كل عدد من النشرة تدق باب «العالم» اللبناني والعالم كله، وفي ابراز مثالب الخصوم وجهلهم، وفي تقديم مهمة بناء التنظيم على سواها من المهام، وفي اعلاء شأن النظرية و «الصياغة النظرية»، وفي التدليل على موضعنا من المهام السياسية والنظرية هذه وهو موضع لا قدر لاحد غيرنا به. لم نكن لنغفل طبعا عن التشديد على البطء الذي يسم القيام بالاعباء الخطيرة، وعلى التراكم الطويل المدى الذي لا غنى عنه في عمل لا يجتذب الا الصناديد من المناضلين المثقفين، وعلى تمثيل وجهة نظر الثورة في الوضع وتناقضاته. جعلت هذه السمات من النشرة، دون ان ندرك او نخطط، سلاحا فاعلا في تماسك المجموعة وفي توليد يقين بدور

هام تلعبه وان لم يتمثل هذا الدور في اي مظهر من مظاهر الحياة السياسية والثقافية الفعلية . كانت النشرة ، كما قلت، طقسا شبيها بالرقص والغيبوبة والتمايل والتضحية لدى الشعوب التي توصم بالبدائية لا لسبب الا لانها لا «تعقلن» طقوسها على شاكلتنا وغرارنا. وكان عشرات او مئات (مع القراء) من انصاف المثقفين وانصاف المناضلين يطربون لطقسنا هذا ويجدون فيه الجواب الشافي على جوعهم للنخبوية والمساواة (داخل النخبة) والولوج في التاريخ والحياة. وكان ثمن الطرب والشفاء بخسا: الموافقة بهز الراس، والالماح بالانتماء للمجموعة وبالتالي بالمشاركة في « انتاجها » .

كان الاسبوع الذي يلي توزيع النشرة عيدا من الاعياد . كنا نشعر بدفق الحماسة والامل في رؤوسنا وفي صدورنا. وكانت قسمات الرفاق تطفح بالبشر والارتياح، وتشد الواحد منا الى الاخرين اخوة غامرة. فتمتلىء الاحاديث والسهرات والنزهات بالتلميح الى ما ورد في النشرة من جمل واحكام وغمز وسخرية. وينطلق الجميع يوزعون النشرة على اصحابهم الذين يعملون على انضاجهم على نار بطيئة بطء كل ما كنا نقوم به، على غرار التاريخ، او حتى على غرار الاراضة (الجيولوجيا) .

معطف الليل

الى اغفال التوقيع والمساواة الظاهرة بين الرفاق كانت السرية سلاحا من اسلحة التلاحم الداخلي واداة من ادواته . وكان للسرية وقع في هذا المضمار بالقدر الذي كانت عديمة المبررات العملية والسياسية. ففي لبنان، في النصف الاول من الستينات، كان المجال متاحا امام النشاط السياسي غير الرسمي، اي غير الانتخابي، دون عائق يذكر. فكانت الاحزاب التي يطلق عليها نعت «العقائدية» ، تمييزا لها عن الاحزاب اللبنانية الصرفة والمحافظة، تسرح وتمرح في الجامعات، في اوساط الطلبة، وفي صفوف النقابات، وتشترك علنا جهارا في انتخابات الروابط والنقابات دون قيد كبير. ولم يكن احد ينكر على الطلاب والنقابيين انتماءهم الحزبي «اليساري» الا عند احتدام السجال. وكان من سمات هذا السجال اطلاق نعت «الشيوعية» على سياسة فؤاد شهاب، ووضع هذه السياسة مع الشيوعية في نفس الجعبة. كما كانت الصحف القريبة من الكتائب والاحرار تشخّص في الناصرية، وتياراتها المحلية ، اخبث انواع الشيوعية. اما التيارات القومية العربية اليسارية فكانت ترى فيها صيغا «كوبية» من الشيوعية. الا ان ذلك لم يكن ليمنع ممثل الكتائب في اتحاد الروابط الطلابية من الجلوس الى الطاولة التي يجلس طلاب شيوعيون حقيقيون الى طرفها الاخر . وكانت المؤتمرات الطلابية تنتخب مكاتب يناقش المؤتمرون علنا توزيع الاتجاهات داخلها، فيتمثل الشيوعيون بعدد من الطلاب يقابل عددا من القوميين العرب وعددا من الطلاب الكتائبيين. وكان يجري ذلك كله تحت نظر طلاب يتداول جمهور الطلاب اسماءهم ويعرفهم بانتمائهم الى «المكتب الثاني» . كما كان يسهم

نقابيون معروفون بعلاقاتهم الحزبية اليسارية في انتخابات نقابات يتربع في سدتها منذ سنوات طويلة ارباب عمل كانوا يتحولون، بسحر علاقاتهم بوزارة العمل وبأجهزة الحكم، الى عمال كادحين. الى ذلك كانت تشهد الانتخابات النيابية مشاركة واسعة من كل التنظيمات السياسية، دون استثناء. فينقلب حملة اعنف الافكار عداء للبرلمانية وللتعفن البرجوازي ولسلاح المال والرشوة الى حملان انتخابيين. فيستعيرون السيارات للقيام بحملاتهم الانتخابية، وينظمون الزيارات الى البيوت، ويتصلون بالاقارب، ويجندون الاصحاب واصحاب الاصحاب، ويديرون في مضافاتهم علب السجائر واقداح الشاي وفناجين القهوة ويطبعون الصور ويوزعونها ويلصقونها على الحيطان، ويعلقون الابتسامة التي تليق بالوقار وتترفع عن الالفة، وقد يعدون بالوظيفة ويلوحون حتما بالمنحة الى ديار الشرق العامرة التي يعود منها الابن مهندسا ودكتورا ملء السمع والبصر.

لم تقتصر الديمقراطية اللبنانية على هذه الامور، على اهميتها، فأتاحت الفرص الواسعة امام نشر علني غير محدود وغير مقيد الا بحدود الطاقة المالية وقيودها. وحتى هذه الاخيرة لم تكن فاعلة اذ كان بوسع اي كان ان يصدر مجلة شهرية، بكلفة رمزية يومها، وان يجعل منها منبرا سياسيا وراء غلالة شفافة من «الاقتصاد» و «الثقافة». اما البيانات العامة فكانت ضوابط توزيعها داخلية في معظمها . كان على التنظيم الذي يقوم بالتوزيع العلني ان يقبل بكشف الافراد الذين يقومون بالتوزيع وان يغامر، لا سيما اذا لم يكن التنظيم معروفا واذا كان يعمد الى تكليف اعضاء لا يعرفهم اهل الحي او الشارع، كان عليه ان يغامر بدفع افراد الشرطة الى تعقب الموزعين بناء على وشاية من الاهالي في معظم الاحيان. اما التوزيع السري الذي يقوم على وضع البيانات في علب البريد او على مداخل البنايات او امام الابواب المغلقة في ساعة يندر فيها التجوال او يخف، فكان من ايسر الامور والتي لا تترتب عليها عواقب مزعجة او سيئة .

اي ان القيود على النشاط السياسي العلني كانت، بكلمة، ضئيلة وغير ثقيلة رغم موقف السلطة المتحفظ، قانونا، حيال الاتجاهات السياسية التي تتمرد على قواعد السياسة اللبنانية المحلية بزعاماتها الطائفية والعائلية الموروثة. وهذا يعني انه كان بوسعنا، دون ضرر كبير، ان نشترك اسوة بغيرنا في النشاط المفتوح والمتاح. الا ان مثل هذا الاشتراك كان يعني المساواة بيننا وبين غيرنا ، كما كان يعني الاعتراف بالديمقراطية والليبرالية اللبنانيتين، والاقرار بامكان الاندراج في حياة سياسية تتيح فرص التغيير بالوسائل المشروعة كما يقال. الا ان معنى ذلك العميق كان القبول برد السياسة الى الوسائل السياسية الظاهرة والصدوع بان السياسة هي هذه الوسائل في المصف الاول. وهذا ما كنا نرفضه في قرارتنا رفضا قاطعا لا مساومة فيه ولا عودة عنه. كنا نحسب ان السياسة الفعلية هي تلك التي تتيح اندراجنا في مسار داخلي، باطني، للوعي. وهو مسار يترجمه التاريخ في لحظات انفجاره احداثا خارجية، ثورات او مؤسسات . الا ان عمل السياسة الفعلي لا يجوز ان يقصر على النشاط الظاهر : على البيانات

والانتخابات والتظاهرات والاجتماعات والتحالفات والمواقف والنشرات .

لم نكن نستنكف عن النشاط الظاهر، على نقيض مما قد يظن قارىء السطور السابقة، بل كنا نقوم بمظاهر هذا النشاط ونصب في قيامنا به هوى فعليا. كان الجلوس الى حلقات الطلاب او الى سهرات الناس في بيوتهم ومحاولة استنتاج قرارة موقفهم ومحركه الخفي، كما كان التظاهر والانتباه الى سلوك المتظاهرين والمتفرجين على الارصفة على حد سواء، كانت هذه الامور متعة كبيرة. اما الاجتماعات فكانت مواعيد غرام عادية يعد لها وتنتظر بشغف، وتمضي بسرعة. وغالبا ما كان يعقبها لقاء غير سياسي يمدها الى قلب الليل في البيت نفسه او في مقهى او في مطعم، اذا توفر المال. الا ان القيام بالنشاط الظاهر لم يكن الا من قبيل رفع العتب او التقيد الظاهر بقواعد خارجية لا تفضي الى صلب السياسة. كان هذا التقيد من قبيل القيام بالواجب والخضوع لاخلاق الواجب ولدين «الاعمال» كما يقول البروتستانتيون. اما الاخلاق العميقة فلا تعترف بالواجب ولا تتقيد به ولا تقف عنده. فهي توغل عمقا لتستشف القصد الذي يصوغ العمل الاخلاقي ويرسم وجهته. لذا فهي تعتبر القيام بالمظاهر الخارجية من النوافل التي لا تمس الجوهر .

كان العمل السياسي الاساس في منظورنا هو تناسلنا وتكاثرنا انطلاقا من البؤرة التي يمثلها ما نفكر وما نرى. اما ما عدا ذلك فثانوي لا يعول عليه . كان الامتداد الفكري الذي يتم بقوة الدفع التي يملكها الفكر وحده قوام العمل السياسي الصحيح. اليس الفكر الصحيح كشفا لا يماري فيه اثنان؟ اليس التاريخ صعودا الى الحق؟ رغم «الحرتقة» السياسية البسيطة التي كنا غارقين فيها الى آذاننا، وهي «حرتقة» تغرق فيها كل التجمعات صغيرها وكبيرها، كنا نتعاطى الميتافيزيقا على طريقتنا وبأسلوبنا . واظن ان العمل السياسي لا ينفصل، ضمنا او علنا، عن ميتافيزيقا ينهض عليها وتمده بأسباب اليقين .

كانت السرية تتيح طقسا اخر من الطقوس الكثيرة التي يتحصن بها العمل السياسي ويتماسك هو طقس التعارف بين الرفاق. في العمل العلني او شبه العلني تكلف القيادة احد اعضاء التنظيم او هيئة من هيئاته الكلام باسم التنظيم والادلاء برايه في امر من الامور. وعندما يدلي العضو بدلوه يعرف كافة اعضاء التنظيم انه ينطق باسم القيادة. لكن الاعضاء يعرفون، الى ذلك، بعضهم، اي يعرف كل واحد منهم، تقريبا، الاخر. ولا تحصى المناسبات التي يتم فيها التعارف الصريح : في التظاهرات التي يشكل فيها كل تنظيم كتلة مستقلة عن الاخرى فتحمل الكتل يافطات متميزة وترفع «هتافة» يهتفون بأراجيز يجتمع على تردادها افراد التنظيم، في الندوات التي يتكلم فيها رفاق مرموقون يرددون امام الحفل المجتمع ما يشكل زبدة «الخط» الصحيح في صدد قضية من القضايا او امر من الامور، في النوادي التي يتسلل الى قيادتها رفاق مخصوصون سبق الاتفاق على دفعهم الى مرتبة المسؤولية ... في هذه المناسبات او هذه الاطر، وفي غيرها يتم تعارف مكشوف ومباشر فيعلم الواحد انه سيلتقي في الندوة او التظاهرة او

النادي او الرحلة اخرين تجمع بينه وبينهم آصرة الايمان المشترك وتشده اليهم.

كنا نحرص على اقامة حواجز صفيقة بين الرفاق من دون مبرر عملي واضح ومقنع. وكان الاعضاء الجدد والقدامى يدركون تمام الادراك ان المبررات العملية واهية. الا ان هذا الادراك لم يحمل احدا يوما على ان يطلب نقاش المبررات المزعومة التي كانت تقتصر على التلويح بالنتائج التي لا بد ان تترتب على صيرورتنا قوة يحسب لها حساب. وكنا نزعم ان من هذه النتائج اقدام البرجوازية او دولتها على قمع لا كابح له ولا رادع اذ لا يعقل ان يتبلور قطب ثوري ولا يجر القمع على اعضائه. وكان هذا التوقع الذي لا يستند الا الى الاستنتاج المنطقي الخالص ولا يستقيم خارج منطقنا الذي اخترناه اطارا لتفكيرنا ضربا من تقديم آيات الاحترام لانفسنا كما كنا نراها في مرآة مشاريعنا واحلامنا. وكنا نتساءل : لم لا تخاف التنظيمات المختلفة من انكشاف امر اعضائها لو لم تكن متواطئة حتى اذنيها مع الحكم ومع سياسة الطبقات الحاكمة؟ ولما كنا، تعريفا، غير متواطئين وجب على الطبقات الحاكمة، ودولتها الطيعة، ان تحمل علينا حملة شعواء. وكنا نعزو سكوت الدولة عنا الى غباء هذه الدولة وجهل جهاز قمعها الذي لم ينتبه الى ما تتضمنه نشراتنا وبياناتنا القليلة من خطر على اركان الحكم. فنحمد الله (مجازا) على نعمتي الغباء والجهل هاتين ونستزيد التاريخ، الذي جبل الطبقات الحاكمة عندنا على ما جبلها عليه، من الغباء والجهل يسبغهما على هذه الطبقات .

كان على الحزبي منا ان يقدم من يعرفهم من الاشخاص الذين يتوسم فيهم رفاقا مقبلين، باسم مستعار لا يعرف ما يخفيه غير الحزبي نفسه. اذا ما فاجأ رفيق رفيقا بزيارة غير متوقعة، وكان عند هذا الاخير صديق يمت بصلة الى التنظيم، سارع الرفيق الى اخفاء الصديق المذكور كي لا يرى احدهما الاخر فيكشف عما ينبغي ان يبقى طي الخفاء .

لم نكن نختبىء حذرا من سلطة تهدد بمداهمتنا، فقد كان الاختباء ابعد بكثير مما كانت تمليه السلطة وما كنا نسميه بخطابية لم تفارقنا «سلامة التنظيم». ولم يكن مردود هذه السرية سياسيا الا بقدر ما كانت تعيق حرية العمل ونشاط الدعوة وتحد من حدة الاسئلة التي كان لا بد ان تطرح علينا لو خلينا بيننا وبين الحركة الحرة المشرعة. الا انه كان للسرية مردود داخلي هام. كانت تحيط ضآلة انتشار التنظيم بستار يطلق العنان للمخيلة، ويجعل من العدد مسألة غير ذات بال. ولم يكن يقتصر نشاط المخيلة على الداخل، اي على اعضاء التنظيم، بل كان يشاطرهم اياه مراقبون من خارج او فضوليون او اعضاء تنظيمات اخرى. كان هؤلاء يحسبون ان مجموعة الاشخاص الذين يلتقون حول اسم مشترك اكثر بكثير مما كانوا فعلا . بينما كان يرى اخرون في مبالغتنا في التخفية مزاحا سمجا لا مبرر له ولا طائل من ورائه .

كان المكسب الاول من وراء هذا السلوك شخصيا او فرديا. كان الرفاق يصيخون السمع في اللقاءات المختلفة التي يشتركون فيها الى النبرة التي تعين

الرفيق رفيقا وتشي بانتمائه الى المجموعة الصغيرة التي ينتمون اليها . وكان فرحهم حقيقيا اذ تتناهى الى سمعهم العلامة الفارقة التي قد تكون كلمة او استنتاجا او مرجعا او لكنة او حتى حركة ! ذلك اننا كنا شرعنا نشكل نوعا من فرقة كالفرق المغلقة التي تتحدث عنها كتب التاريخ الديني. وكنا نعيش داخل حلقة ضيقة من الناس تتألف من افراد تشدنا اليهم صلة الهوى الفكري والسياسي. فكنا نروح ونجيء، نسهر ونأكل، نقرأ ونتكلم، نتسلى ونتنزه، داخل الحلقة المذكورة التي كانت تنفتح بين وقت واخر ليدخل منها رفيق /صديق/ اخ جديد ينضم بدوره الى الحلقة. لم نكن نشكل كلنا حلقة واحدة، بل كنا نشكل حلقات قليلة العدد يصل بينها بعض الرفاق المفصليين الذين ينقلون من حلقة الى اخرى انماطا محددة في الكلام والسلوك والتفكير. وكانت هذه الاساليب تنتقل بفعل محاكاة غريب يجعل من الحلقات المتباعدة والمنفصلة حلقة واحدة. بل ان التوحيد الذي كانت تحققه المحاكاة غير الواعية كان ادق واعمق من التوحيد الذي استطاعت ان تحققه لاحقا ارادة توحيد معلنة. لذا كانت العلامات الفارقة في متناول اي نظر ولو ضعيف التمييز. فكنا كالمؤمن الذي يبيت منتظرا البشرى التي تحملها العلامات الفارقة والتي تؤذن بمجيء ما يضع حدا ولو مؤقتا للانتظار. كان انتظارنا لليوم الذي نغدو فيه قوة سياسية يقتات من هذه الالتماعات المتباعدة التي تشي بوجود رفيق مجهول في هذا المكان او ذاك، والتي تدل دلالة مضطربة على ان الحبة التي ماتت تنبت السنابل في اماكن مختلفة. وكانت تحف بهذه «الاكتشافات» شحنات عاطفية تغذي املا مجنونا لا تملك حجج الواقع بازائه حجة. وكانت الصورة الجماعية التي ترفرف في اذهاننا عن المجموعة هي صورة اسرجة الليل المبثوثة في حواشي الليل وعلى اطرافه والتي يطلع تكاثرها نهارا من «بطن الضلمة» كما يقول احمد فؤاد نجم. كانت السرية معطف الليل الذي لا معنى للضوء الا حياله اذ ان «النهار معار بينما الليل هبة». (كامينفز).

الخرافة اولا

لا تحمل الصفحات السابقة ما يزيح ولو طرفا من ستار عن الممارسة السياسية الحزبية، كما تعرفها مجتمعاتنا العربية وكما تتمثل في الوثائق السياسية وفي الاخبار التي تقوم التواريخ الوضعية بجمعها وتبويبها وتنسيقها. ذلك ان الوصف السابق تعمد تناول مادة او جانبا من مادة تضمرها السياسة قبل ان تنساها وتمحوها. اي ان هذه المادة تكمن في ما قبل السياسة او في ما دون السياسة، في الحاشية المتداخلة التي تسبق تمايز السياسة في الفعل او في الشعور نفسه. ذلك ان السياسي لا «يرتقي» الى السياسة ولا يبلغها الا اثر صدوره عن هذه الحاشية الخرافية التي تأنف السياسة منها وتسعى جهدها لمحوها او على الاقل لكبتها. وقد يدهش قارىء ابن خلدون حين ينتبه الى ان اقساما كاملة من **المقدمة** تدور على ما يسبق استواء الدولة دولة والملك ملكا. واذا بابن خلدون العقلاني، الفقيه (ثقافة)، يغرق في استقصاء الحال التي

كان عليها البدو في البادية قبل الوثوب الى السلطة. الامر الذي يحمله على كتابة صفحات لا يوليها العقلانيون بالا هي من اروع وادق ما كتب. في هذه الصفحات تحاول المقدمة تعيين نمط من الامكنة يتمرد على المكان، اي على الثبات والاستقرار والتزامن، ويناقض المكان المديني الذي يستقبل الاختطاط. فالمكان الذي تصدر عنه البداوة وتكمن فيه الدولة (والقوة) قبل ان تغدو شيئا زمنيا، شيئا يدول اي ينتهي وينقضي ويعفو عليه الزمن، هذا المكان يتعالى على المكانية دون ان يستطيع الانسلاخ عنها. الا ان هذا التعارض المستحيل يولد الظعن، احتياط المكان والمدينة والاختطاط والدولة والتاريخ . وما الظعن الا الكمون وتكراره الملح ونزوعه الى الخروج الى حيز الزمن التاريخي والسياسي. فالبادية هي الحاشية المتداخلة والمتعارضة التي تؤسس السياسة والتاريخ في نفيها، في محوها. انها الحافة التي تبدأ منها السياسة (التاريخ) الا انها حافة تقوم على لجم السياسة لا على استباقها .

لم نعد بدوا، ولم تعد السياسة تبدأ من حاشية البادية. امست الخرافات المؤسسة للسياسة تستسقي مادتها من «بادية» اخرى، داخلية هذه المرة، على غرار كل الثقافة التي خلفها التاريخ الغربي فينا .

الحقوق الوطنية غير القابلة للتصرف للشعب الفلسطيني

د. عبد القادر ياسين

في العاشر من كانون الاول ١٩٤٨ اقرت الجمعية العامة للامم المتحدة «الاعلان العالمي لحقوق الانسان» . ومنذ ذلك الحين اهتمت الاسرة الدولية بشكل لم يسبق له مثيل بحماية حقوق الانسان الفردية والجماعية. ونتيجة لهذا الاهتمام تم وضع قائمة بحقوق الانسان الاساسية المعترف بها دوليا، وقد ادرجت هذه الحقوق في مواثيق ومعاهدات واتفاقيات وبروتوكولات . ومع ذلك لا زالت هذه المواثيق دون تنفيذ .

ومن بين الحقوق الاساسية التي تضمنها «الاعلان العالمي لحقوق الانسان»:

١ ــ لكل انسان الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه .

٢ ــ لا يجوز استرقاق او استعباد اي شخص .

٣ ــ لا يعرض اي انسان للتعذيب ولا للعقوبات او المعاملة القاسية او الوحشية .

٤ ــ لا يجوز القبض على اي انسان او حجزه او نفيه بشكل تعسفي .

٥ ــ لكل شخص الحق في حرية التفكير، والضمير، والدين، والراي، والتعبير والاشتراك في الجماعات .

٦ ــ الحق الجماعي في تقرير المصير والاستقلال الوطني (١) .

ولكن سواء كانت هذه الحقوق فردية او جماعية فانها متممة لبعضها البعض واي انتهاك لها محرم في القانون الدولي لحقوق الانسان. وقد ادى انتهاك هذه الحقوق بشكل منظم ومتكرر وعلى نطاق واسع الى اختلال النظام العالمي.

ان النزاع الفلسطيني ــ الصهيوني مثال واضح على ان انتهاك حقوق الانسان الاساسية يؤدي الى النزاع واختلال النظام العالمي وبشكل تهديدا للامن والسلام العالميين. فقد حرم اربعة ملايين فلسطيني من حقهم الجماعي في تقرير المصير والاستقلال الوطني، وبصورة فردية يعيش اكثر من مليون ونصف مليون فلسطيني تحت الاحتلال الصهيوني ويتعرضون لاشكال مختلفة من انتهاكات

(1) U. N. General Assembly Resolution 217 , U N Document 8/810, 1948 .